عمر لطفي النجار

الأخلاق ومنهج الصراع

في التصوف

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ المقدمة:

التصوف كما هو معروف متكامل بمبادئه وخصائصه ولا خروج له عن كليته هذه مهما تكن طبيعة الإنكار الذي يصطدم به، إلا أن الدين سيبقى هو العدو المنهجي الأخطر من بين كل أعدائه، ويتجلى هذا واضحاً في الصراع الذي لا ينقطع بين الفقهاء وأولياء التصوف، ومن استمرار هذا الصراع عبر الزمن كان للصوفي صياغة المنهج الذي به المحافظة على بقائه مصارعاً لكافة الأعداء المحيطين به، بما فيهم الأولياء أقرانه، ومن أجل التعرف إلى عناصر هذا المنهج وما فيه من حيل هدفها البعد عن الصدام المباشر مع الدين وتنزيه صراع الأولياء المشين بعيداً عن المطاعن، للحفاظ على مكانتهم المقدسة أمام المريدين والأجانب أو أعداء البيئة، كان هذا الكتاب.

إن صراع أولياء التصوف مع البيئة قد انعكس أثره السلبي الأكبر على المريد الصوفي لما عزلوه عن العقل عن الكتب عن العلم عن التفكير، حتى أصبح كدمية لا إرادة لها ولا عقل أمام إرادة الشيخ، وبهذا كان الانتشار الهدام لقيم اللامبالاة والجهل والذل ودناءة التسول وانتظار الصدقات أو الفتوح بين أفراد المجتمع.

أما صراع الأولياء مع بعضهم البعض على الرزق أو مناطق التسول الموزعة بين الطرق الصوفية أو على الشهرة والسمعة لدوام

المحافظة على المريدين كمصدر هام للرزق دون تسربهم نحو الطرق الأخرى، قد أدى بالفعل إلى فضيحة أولياء التصوف أمام أنفسهم بالدرجة الأولى وأمام مريديهم وخصومهم ثانياً، حيث أدى إلى سقوطهم الخلقي المدوي، وتهافتهم العقائدي أو المعرفي، إلى حد زوال مبدأ عدم التناقض فيما بينهم لما طلبوا البراءة لأنفسهم. وهنا أيضاً نلمس خطورة هذا المبدأ على المجتمع إن كان للمجتمع انعزاله عن الحكم على كل من أخطأ أو أصاب. وإلى الله قصد السبيل.

ـ المريد بين الاستدراج والفرار:

إن الصوفي أو الغنوصي الموجود في البيئة النبوية التي لها عقائدها وتشريعها سيعاني كثيراً من رجالها بما لهم من موازين وضوابط، وسوف يضطر من أجل الحفاظ على بقائه ووجوده لخوض معركته باتجاهين، الأول: استدراج المريدين من أبناء البيئة ليكونوا من أتباعه لتأمين رزقه وتحقيق مآربه، ومن ثم الحفاظ على بقائهم في حظيرته بعيداً عما كانوا عليه وبعيداً عن المنافسين له من أقرانه. أما الثاني: فهو المتمثل في دفاعه عن سلوكه وأسرار عقائده بما فيهما من خلاف للمشروع والمعلوم.

ومن أجل استدراج المريدين جعل من نفسه المصدر للتشريع والاعتقاد، ليزعم من جملة ما زعم أن التصوف فرض عين على المسلم مثله مثل الصلاة والحج والزكاة، وإلا فلا كمال له في دينه، وقد قال "الغزالي: أنه فرض عين. وقال الشاذلي: من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر"[1]، كما قال "إن أردت ملك الدارين فادخل في طريقتنا هذه يوماً أو يومين"[2]، أما الشيخ أبو بكر بن أبي السعدان فيقول: "من لم ينظر في التصوف فهو غبي"[3]، وبالتعميم:

---

[1] - ص٧ ج١ إيقاظ الهمم

[2] - ص٢٣٦ شروح رسالة الشيخ أرسلان

[3] - ص٤٣٢ طبقات الصوفية

من لا شيخ صوفي له فشيخه الشيطان! وما أكثر أمثال هذه الأقوال والنعوت التي حشدها القوم لهذا الغرض، وأي ساذج بعدها سيرضى لنفسه الكبائر أو النقص في العقل والدين وهل له إلا التصوف لكمال دينه؟ وإن أتى إليهم من صدَّقهم اتجهوا إليه بنصائحهم وأوامرهم، والسكندري يخاطب المريد أو المبتدئ الصوفي محذراً له من المنكرين عليهم قائلاً: "إياك أيها الأخ أن تصغي إلى الواقفين – أو الطاعنين – في هذه الطائفة – الصوفية – المستهزئين بهم لئلا تسقط من عين الله وتستوجب المقت من الله. هو المحارب عنهم لمن حاربهم والغالب لمن غالبهم ولقد ابتلى الله هذه الطائفة بالخلق خصوصاً أهل العلم الظاهر"[1]. أي: ليس للمريد أن يجتهد لمقارعة الحجة بالحجة فإن الله يقاتل عنه فليس له إلا الهرب ممن يأتون بالبراهين على إنكارهم عليه، ولذلك حظروا على أتباعهم من الجلوس مع أهل العلم الظاهر سواء كانوا فقهاء أو محدثين أو مفسرين، "فالعزلة – كما يقول ابن عجيبة – أفضل من الجلوس مع العوام. والجلوس مع علماء الظاهر أقبح. والله ما رأيت فقيراً صحبهم فأفلح في طريق القوم أبداً، فلا قاطع أعظم منهم"[2]، "فليحذر المريد من صحبتهم – يقصد الفقهاء – والقربى منهم ما استطاع، فإن توقف في مسألة ولم يجد من يسأل عنها من أهل الباطن فليسأله على حذر ويكون معه كالجالس مع

---

[1] - ص٢٣١ لطائف المنن

[2] - ص١٥٠ ج٢ الفتح الإلهي

العقرب والحية، والله ما رأيت أحد قط من الفقراء قرب منهم وصحبهم فأفلح أبداً في طريق الخصوص"[1]. فالمريد إذن مخيَّر بين الطريق المؤدي إلى الله المؤدي إلى تحصيل الخوارق والمعرفة وبين الطريق المؤدي إلى الضلال، فالفقراء برأي الصوفي ابتداء بابن حنبل والشافعي نهاية بالموجود في الصحاح أو عند العلماء، كلهم ضالون مضلون، ولا فلاح إلا لمن اعتبرهم كالحيات والعقارب ولا نجاة من شرهم إلا بالهرب منهم، وبإغلاق منافذ العقل تكون النجاة، "ومن شأن أهل الطريق كما يقول الشعراني أن لا يقيموا الحجج على من أنكر عليهم لعلمهم بحجابه عن طريقهم، وإنما يقولون له كما قال الخضر: هذا فراق بيني وبينك- فلا تظن يا أخي أنهم عاجزون عن إقامة الحجة وتنسبهم إلى العامية"[2]. فليس عن عجز صمت الأولياء وهربهم من الحجج فهم أهل المعرفة المعروفون بعلاماتهم التي منها كما يقول الشيخ علي الخواص البرلسي "صفرة الوجوه- وقلة الفقه"[3]. فليس الفرار من علماء الرسوم والفقه عن جهل بالعلوم وعجز بالحجة ولا خوفاً من الفضيحة التي تشير إلى التضارب بين الإسلام والتصوف ولا خوفاً من انحياز الناس وانتصارهم لحجج الخصوم، وإنما عن معرفة لدنية باطنية بأن خصومهم محجوبون عن الحق والحقيقة!

---

[1] - ص٧٦ ج١ إيقاظ الهمم
[2] - ص٢٠ ج١ ف٣ اليواقيت والجواهر
[3] - ص١٥٩ ج٢ الطبقات الكبرى

واعلم أيها المريد كما يقول ابن عجيبة أن الواجب الأعظم أنه حيثما "رأيت منتقداً – للتصوف – ففر منه فرارك من الأسد واهجره"[١]، واهجر أيضاً كل الكتب التي لها علاقة بالفقه والأحاديث والتفسير، لأنه لا قواطع أعظم منها في سلوكك إلى الله عز وجل، "فإياك إياك – كما يقول الرواس – أن تلفت نظرك إلى سطورهم فهي دون أساطير الأولين، أو أن تستهوي عقلك لآرائهم فإنهم من الضالين"[٢]، وابن عربي بدوره شدد كثيراً على منع المريدين من قراءة الكتب المغايرة للتصوف قائلاً: "لا يجوز النظر في كتب الملل والنحل لأحد من القاصرين – أو المريدين – وأما صاحب الكشف أو الواصل فينظر فيها ليعرف من أي وجه تفرعت أقوالهم لا غير، وهو آمن من موافقتهم في الاعتقاد لما هو عليه من الكشف الصحيح"[٣]. فليس للمريد إذن قراءة الكتب الأخرى إلا إن أصبح ذا كشف بعد طول العمر! وبذلك يكون من أهل التصوف الذين لا خوف عليهم من الآراء الأخرى أو العقائد المختلفة!!

الفقيه لا يهاجم الصوفي منكراً لسلوكه وعقائده كما يقولون إلا عن مغالطة وإلا فكيف له الحكم على ما يجهل، فكيف للنجار الحكم على الحداد وإنها لعجيبة، فلكل رجال – كما يقول الشعراني – مقام يذوقونه

[١] - ص٨ ج١ إيقاظ الهمم
[٢] - ص٣٧٨ أشرف الوسائل
[٣] - ص٣٤ ج٢ الكبريت الأحمر

فيما بينهم، ومن فهم هذا توقف عن الإنكار على غيره لأنه سالك من طريق غير طريقه، فلا يعترض الفقيه على النحوي ولا المقرئ على الأصولي ولا الفقيه على الصوفي وبالعكس لأن لكل فرقة اصطلاحاً فيما بينهم"[١].

ولكن هلا علم الشعراني أن الفقيه تبعاً لموضوعه أو اختصاصه لا ينكر إلا كل ما له علاقة بالخروج عن العقيدة والشرع أو القوانين سواء كان الخارج نحوياً أو حداداً أو صوفياً؟ وإلا فلكل واحد من أفراد المجتمع القانون الذي يخصه دون غيره! فالمريد إذن لا يكون صالحاً للتصوف إلا إن أغلق عقله أو عطله، ولا نجاة له إلا بالهرب من أمام حجج الخصوم لا فرق في ذلك إن كانت الحجج من العقل أو النقل، وبإغراء تحصيل الخوارق وأضغاث الأحلام بالوصول إلى الله والكشف يكون بقاء المريد في حظيرة مشايخ التصوف.

[١] - ص٤٠ – ٤١ الأنوار القدسية

- سلِّم تسلم:

المنهج الصوفي كما هو معلوم يقسم الناس إلى مراتب ومقامات: عوام، مريدين، خواص، خواص الخواص، ولكم عانى مشايخ التصوف وهم يحاولون إحكام طوق العزلة على المريد ليكون بعيداً عن أي تأثر فكري بمن حوله حتى قالوا أنه لا استقامة للمريد في طريق التصوف إلا إن أصبح خالي الوفاض من العقل والدين، والشيخ أحمد بن المبارك مثلاً يئن ألماً ليقول: "كل ما بنيته معهم – يقصد المريدين – في مدة سنين ينهدم بمجرد مخالطتهم لمن هو من أهل البطالة، بل ينهدم بمجرد غفلتي عنهم وعدم تنبيههم، كالدابة التي تمشي ما دامت تُضرب"[١].

الشيخ الصوفي يكره كثيراً المريد الذي يراقب سلوكه، ولم يجد الشيخ إتقاء لهذا الشر أفضل من فكرة حسن الظن والتسليم ليفقأ بهما تلك العيون الفاحصة سواء كانت للمريدين أم للخصوم. فعلى المريد أن يحسن الظن بشيخه مهما كان سلوكه مريباً أو محرماً، والشيخ محيي الدين النووي يقول: "يحرم على كل عاقل أن يسيء الظن بأحد من أولياء الله عز وجل، ويجب عليه أن يؤوِّل أقوالهم وأفعالهم ما دام لم يلحق بدرجتهم-. فليؤول كلامهم إلى سبعين وجهاً"[٢] عوضاً عن اتهامهم. فمهما سمعت من الصوفي أقوالاً بها الخروج عن الدين ومهما كانت أفعاله مخالفة

---

١ - ص٦٥ ج٢ الإبريز

٢ - ص٩ ج١ ف١ اليواقيت والجواهر

للشرع والأخلاق فلا تعترض عليه فإن الله أعلم بأسراره فاحسِن الظن وسلِّم لهم أحوالهم، فهم معصومون أو محفوظون وبهذا الميزان يكون تأويلك لما تسمعه منهم أو لما تراه عينيك، وإن أردت النجاة أكثر فكذِّب عينيك وسد أذنيك وإلا فأنت مجنون لا عقل لديك، والدسوقي "يقول: عليكم بتصديق القوم "أو الأولياء" في كل ما يدعونه، فقد أفلح المصدقون وخاب المستهزئون- فما للعاقل إلا التسليم"[1] "فسلِّم تسلم"[2]، "واتبع الشيوخ "كما يقول عبد القادر الجيلاني"- أو أحسن الظن بهم"[3] واحذر أن تقترب منهم بالميزان، "ولقد أنصف من قال من أصحاب الأحوال: إننا نسلِّم لهم أحوالهم ولا نقتدي بهم حيث لم نجد ما يبطلها ولا ما يصححها"[4] حتى لو كان كاذباً زنديقاً فلا اعتراض عليه حسب ابن عجيبة، "فإن كان كاذباً فالأمر بينه وبين من انتسب إليه"[5]، وإن كان صادقاً فلكم وله.

العصمة، حسن الظن، التسليم، التأويل، تحطيم الموازين، عدم الاقتداء، كل ذلك بالفعل لتضليل الأحكام بقصد إعطاء الحرية للصوفي الذي يعيش في البيئة المغايرة، وابن عربي يقول: "فخذوا من العلماء بالله، الدعاة إلى الله، ما يقولون، ولا تنظروا إلى أفعالهم وأحوالهم **فإنهم**

---

[1] - ص١٧٣ ج١ الطبقات الكبرى
[2] - ص١٢٧ ج١ الكبريت الأحمر
[3] - ص١٦٥ الفتح الرباني
[4] - ص٦٢ ج٢ الطبقات الكبرى
[5] - ص١٠٨ ج١ إيقاظ الهمم

على ما عيَّن الحق لهم غير ذلك لا يكون. ولقد قال بعض الصالحين في جلسائهم: من جالسهم وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله نور الإيمان من قلبه، فليس لجلسائهم أن يفعلوا مثل أفعالهم، وإنما عليهم أنهم لا ينازعونهم فيما يظهر عليهم من علم الحقيقة"[1].

فالصوفي لا يخطئ وهو دائماً في أقواله وأفعاله على ما عيَّن الله له، فلا يجوز تقليد أفعاله لأنه مأمور بها مطيع لربه فيما يفعل ويقول، حتى ولو كان في الظاهر على المعصية، "ومن ثبتت ولايته – كما يقول – فقد حرِّمت محاربته- وكل من لم يطلعك الله على عداوته لله فلا تتخذه عدواً وأقل أحوالك إذا جهلته أن تهمل أمره- ومتى لا تعلم ذلك فلا تعاد عباد الله بالإمكان ولا بما ظهر على اللسان"[2].

فالنقد إذن حسب ابن عربي له أصوله وما هو للمسموع ولا للمرئي وليس لأحد فيه نصيب إلى الله وحده، ومن كان له الاتصال به سبحانه فله نقد الأولياء، ولا نقد لهم بما يقوله الله في كتابه أو بما صح عن رسوله، أو بالعقل الذي لا طائل منه برأيه، والغزالي يقول متوعداً النقاد أو الفقهاء قائلاً: "واعلم أن هذه الأحوال والمقامات لا يصدقها إلا من عرفها- فأحسن الظن- وإلا فالندم تجده عند وفاتك"[3]، "فجاهد ولا تجاحد-

[1] - ص١٨٣ ج٤ بـ٥٣٩ الفتوحات المكية
[2] - ص٤٤٩ ج٤ بـ٥٦٠ نفسه
[3] - ص٩٠ سر العالمين

وحسن الظن هو الإكسير العظيم الذي به يقلب كل جهل علماً، فمن تمسك به فقد استراح"[1]، "ومن لم يصدق بهذا – كما يقول السهروردي المقتول – فعليه بالرياضات وخدمة أصحاب المشاهدة"[2]، فمن أراد الحكم على القوم إذن فعليه أن يذوق مذاقهم وأن يصل إلى ما وصلوا إليه وإلا فليس له إلا متابعة المسير في رياضاته إلى أن يفتح الله عليه، واعلم أنه لا فتح إلا في رضى المشايخ وخدمة أصحاب المشاهدات، والشيخ عبد القادر الجيلاني يصرخ كعادته قائلاً: "يا قوم أزيلوا التهمة لي من قلوبكم- ما زلت في عمري كله أحسن الظن في الصالحين وأخدمهم وذلك الذي ينغصني"[3]، "فكيف تتهموني وتغتابوني وأنا شفيق عليكم أحمل أثقالكم وأخيط فتوق أعمالكم وأشفع إلى الحق عز وجل في قبول حسناتكم والتجاوز عن سيئاتكم من عرفني يستغني بي عن غيري"[4]. فالصوفي إذن هو الأفضل والأنفع وإن سلمتم له أحواله دون الاعتراض عليه فهو شفيعكم يوم الحساب وبرضاه قبول أعمالكم والفوز بالجنة التي هي من نصيب كل ذي قلب سليم، وإياك إياك أيها المسلم "واحذر كما يقول الشعراني من أن تذكر الأولياء الذين مضوا بسوء- فتلك أمة قد خلت"[5].

---

[1] - ص١٠٤ نفسه

[2] - ص١٠٤ التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة

[3] - ص١٧٦ الفتح الرباني

[4] - ص٢٣٦ نفسه

[5] - ص٢٨ – ٢٩ الأنوار القدسية

التسليم كما يرى الصوفي ليس بلا ثمن، واعلم بأن عطايا الله عظيمة، "فالتسليم أولى بل هو نصف الولاية"[1]. وهل لمسلم أن يرفض الولاية أو نصفها على الأقل أو كل العلم حسب الغزالي فسلِّم لهم أمرهم ولك نصف الولاية لا بل الولاية كلها، فالشاذلي الكريم في عطاياه يقول: "تسليم طريقتنا ولاية واعتقادها عناية"[2]. فالمعتنى به من الله هو الذي اتخذ العقائد الصوفية ديناً له دون غيرها، "ومن عرف أهل حقائق الباطن – كما يقول ابن عجيبة – ولم ينكر عليهم شيئاً من أحوالهم يظفر بما في أيديهم على كل حال ولا يُمنع خيرهم قطعاً"[3]، والغزالي يقول: "فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله، فليكن محباً لأولياء الله مؤمناً بهم"[4]، وقد سئل محمد بن أبي ورد "من الولي؟ فقال: من يوالي أولياء الله ويعادي أعداءهم"[5]، وقد روى صاحب "حلية الأولياء" "أن إبراهيم بن أدهم رأى في المنام كأن جبريل عليه السلام قد نزل إلى الأرض فقال له: لم نزلت إلى الأرض؟ قال: لأكتب المحبين. قال: مثل من؟ قال: مثل مالك بن دينار وثابت البناني وأيوب السختياني وعد جماعات. قال: أنا منهم؟ قال: لا. فقلت: فإذا كتبتهم فاكتب تحتهم: محب للمحبين. قال: فنزل الوحي: اكتبه

---

[1] - ص٢٤٨ ج٢ الفتح الإلهي
[2] - ص١٣٨ ج١ نفسه
[3] - ص٤٨ ج١ إيقاظ الهمم
[4] - ص٣٥٨ ج٤ إحياء علوم الدين
[5] - ص٢٥٠ طبقات الصوفية، ص٩٩ ج١ الطبقات الكبرى

أولهم"[1]. فمحبة أولياء التصوف وعدم الإنكار عليهم تؤدي إلى المحبة والقربة إلى الله، وتيمماً بالنبي صلى الله عليه وسلم يقول الصوفي: "أحبوني يحببكم الله"، واعلم أنه لا يصدِّق المتصوفة "ويعتقد صحة علومهم وأسرارهم إلا من أراد الله عز وجل أن يلحقه بهم ولو بعد حين، وأما المكذب لهم المنكر عليهم فهو مطرود عن حضرتهم لا يزيده الله تعالى بذلك إلا بعداً"[2]، والشيخ عبد القادر الجيلاني يقول: "من يتهمني ويكذبني كذبه الله، فرَّق الله بينه وبين عياله وبلده إلى أن يموت"[3]، واعلم بأن علم الإلهام والمكاشفة، اعلم أن "أدنى النصيب من هذا العلم التصديق به وتسليمه لأهله، وأقل عقوبة من ينكره أن لا يرزقه منه شيئاً"[4]. فمن صدَّق المتصوفة في مزاعمهم فهو المقرب إلى الله الموعود بكل الخير ابتداء من تحصيل الخوارق انتهاء بتحصيل المعارف اللدنية، ومن كذبهم وأنكر عليهم فهو المعاقب والمغضوب عليه من رب العالمين، فسلموا للصوفي شؤونه ولا تحاسبوه على شيء بدر منه لتكونوا آمنين على أموالكم وأولادكم وأنفسكم من الهلاك الأكيد.

وإضافة إلى الوعد والوعيد الذي استخدمه المتصوفة تحصيلاً للتسليم بعدم معارضتهم للدين، نرى الشيخ علي ولده يقول: "من صدَّق

---

[1] - ص٢٣٥ تاريخ التصوف الإسلامي
[2] - ص٨ ج١ الطبقات الكبرى
[3] - ص٣٥٨ الفتح الرباني
[4] - ص٤٤٧ حقائق عن التصوف

العلماء والعارفين فهو الرجل وإن كان أنثى، ومن كذبهم فهو من النساء وإن كان ذكراً"[1]. فليس للعاقل إذن إلا التسليم بعقائدهم وخرافاتهم ليكون رجلاً، وبهمة الرجال يذهب إلى مجالسهم التي لها غفران الذنوب وحسن المآب، والشاذلي يقول: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما أحسن مجلسك قد غفر الله لكل من حضره"[2]، والشيخ أبو الحسين بن بنان يقول: "لا يعظِّم أقدار الأولياء إلا من كان عظيم القدر عند الله تعالى"[3]. وإن قلت إنهم من أهل البدع الخارجة على العقل والنقل في رياضاتهم وعقائدهم، قالوا: هذا لا يجوز، تأدب "والأدب – حسب الشعراني – هو التسليم للقوم في كل شيء قالوه"[4] أي: حتى لو قال أحدهم: سبحاني أو أنا ربكم الأعلى!

فمن خشية الولي الصوفي لعلماء الإسلام أمر المريد بالهرب منهم، وحيث صار المريد تحت كنفه أصبح يخشى عينيه وأذنيه ولسانه، فوصف له التسليم وحسن الظن الذي به غفران الذنوب والقربى من الله وتعجيل الفتح والوصول والكشف وجريان الكرامات بين يديه، ومن أحسن الظن بشيخه وكذب نفسه وكفر بعقله، فهو الولي أو نصف الولي على الأقل!!

---

[1] - ص٥٣ ج٢ الطبقات الكبرى
[2] - ص٧٤ ج٢ نفسه
[3] - ص٣٩٠ طبقات الصوفية
[4] - ص١٣ ج١ الطبقات الكبرى

ـ الكتب ومنهج العداء في التصوف:

إن للتصوف منهجاً خاصاً في عدائه للآخرين وبدايته الحظر على المريدين من الاختلاط مع أهل العلم من غير أوليائهم وصولاً لقولهم: من ترك التصوف فلا بد معاقب، والشيخ أبو عبد الله الضبي مثلاً "يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول: من عرف طريقاً إلى الله فسلكه ثم رجع عنه عذبه الله عذاباً لم يعذب به أحداً من العالمين"[١]. وبالمقابل يقول الشيخ أبو عثمان المغربي: "إن الله جعل أنس عباده في رؤية أوليائه"[٢]. فليس للمريد الأُنس بغير الأولياء وإن مال إلى سواهم فهو معاقب ولا بد وحتى التفسير لا يجوز طلبه من غير أهل الله أهل التصوف، والشعراني يقول: "فلا ينبغي أن يفسر كلام الله تعالى إلا كُمَّل ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام"[٣]. وبالطبع فإنه يعني بهم أولياء التصوف.

وأيضاً منعوا المريدين من قراءة كل الكتب التي تناقش التصوف سواء كانت للفقهاء أم المحدثين، فمثلاً كتاب "تلبيس إبليس" فإن الكثير – من أرباب التصوف – نهوا عن مطالعته ومنهم العارف الشعراني"[٤]،

---

[١] ـ ص١٢١ ج١ الطبقات الكبرى
[٢] ـ ص١٢٢ نفسه
[٣] ـ ص٩٥ الأنوار القدسية
[٤] ـ ص٢٩٣ أشرف الوسائل

و"الصيادي" يقول عن مؤلِّفه الفقيه ابن قيم الجوزي: "فما مثل ذلك اللئيم إلا كمثل الشيطان الرجيم"[١].

وليس الحظر واقعاً على كتب الأعداء فحسب، بل وحاولوا منع انتشار كتبهم بين الناس خشية من التعرف إلى عقائدهم أو أسرارهم، فابن عربي مثلاً يقول: "نحن قوم يحرم النظر في كتبنا على من لم يكن من أهل طريقنا"[٢]، أو على "من لم يكن في مقامنا"[٣]. وهذا يعني أن كتبهم محجوبة عن الأعداء والمريدين على السواء، ولا تباح إلا للواصلين من أهل الأسرار، فالشعراني مثلاً لا يحب للمريد قراءة كتب التوحيد ككتب ابن عربي على سبيل المثال "وذلك – كما يقول – لعدم الفائدة وشدة الإنكار على من تفوَّه بما ذكروه فيها مما يخالف عقول غالب الناس، وما كل ما يعلم يقال، وربما فهموا منها أموراً تخالف صريح السنة، فيموتون على اعتقادها فيخسرون مع الخاسرين. وما رأينا قط مريداً بلغ مبلغ الرجال بمطالعة الكتب"[٤].

فالكتب الصوفية لا تنفع المريد، ففيها كل المضرة لأنها قد تؤدي بقارئها إلى الشك بعقائد أصحابها، لأنه دون فهمها كما قد تؤدي إلى احتمال البوح بما فيها للآخرين وهذا غير جائز، فليس أنفع للمريد من

---

[١] - ص٢٩٤ نفسه
[٢] - ص٥٢١، ٥٢٥ حقائق عن التصوف
[٣] - ص٦٩ الأنوار القدسية
[٤] - ص٢٢٠ ج٢ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق

خدمة المشايخ والقيام بالرياضات حتى يكون له فهم التصوف في نهاية الأمر عوضاً عن قراءته للكتب. ومن الشروط التي يجب توفرها في قارئ كتاب "فصوص الحكم" لابن عربي مثلاً أو سامعه حسب مصطفى كمال الشريف "أن يسمعه من الرسول أي يرى ذلك الكلام مما عدا التفصيل هو كلام الرسول، لكن من وراء حجاب وأن لا ينكر على الإمام محيي الدين شيئاً مما ذكره ولا يهوله ما يسمعه من الكلمات"[١] التي ظاهرها الإلحاد والكفر الصريح!

فعلى القارئ سلفاً إن أراد قراءة كتب أرباب التصوف، أن يقرأها بلا عقل ولا فهم، وسلفاً يجب اعتبارها كأنها كلام الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يستحيل فيه معارضة نفسه أو معارضة الله تعالى، وقراءتها إجمالاً لا تجوز إلا للتبرك بها، لأن الفهم لها غير مقدور لكل البشر، "فغير المفتوح عليه بالفتح الكبير- لا يقدر على إدراك أسرار"[٢] كتاب فصوص الحكم، واليافعي نهى مريديه عند موته عن قراءة ابن عربي بعد أن كان يشرحها أو يؤولها لهم "وقال: إنكم لا تفهمون معاني كلامه"[٣]، والبلقيني يحذِّر من الشك في الشيخ محيي الدين، والذين كفروه حسب رأيه "لم يكن عندهم معرفة باصطلاحه ولا سألوا من يسلك بهم إلى

---

١ - ص٢٦٠ شروح رسالة الشيخ أرسلان

٢ - ص٢٥٦ نفسه

٣ - ص١٦ ج١ فصوص الحكم

إيضاحه"[1]، والشعراني يقول: "وما أنكر من أنكر عليه إلا لدقة كلامه لا غير، والمتصوفة أنكروا على من يطالع كلامه من غير سلوك طريق الرياضة خوفاً من حصول شبهة في معتقده يموت عليها لا يهتدي لتأويلها على مراد الشيخ"[2]. فليس على المريد أن "يتعب نفسه لأجل فهم كلام الإمام بالفكر والنظر- إن كان غير مفتوح عليه الفتح الرباني"[3]، وإلا فمن المحال تحصيل الفهم، لأن المشايخ يتكلمون "بلسان قدسي لا يعرفه إلا الملائكة أو من تجرد عن هيكل البشرية أو أصحاب الكشف الصحيح"[4].

فالمريد إذن لا يحق له النظر في كتب الأولياء والتمعن فيما تعنيه أو وضعها في الموازين، فليس عليه إلا حسن الظن بعقائد أصحابها وتجهيل نفسه، حتى يكون له الفتح الكبير أو توحيد لا فاعل إلا الله حسب مصطلحهم أو التجرد من بشريته ليكون من جملة الملائكة وإلا فلا. فالتصوف لا يُنال بالكتب ولا هي من أسباب الوصول إلا لمن طلب خداع نفسه، وإياك والالتفات كما يقول الشريف لمن قال بأن الكتب سبباً من أسباب الفتح والوصول إلى الكشف"[5]، فالتصوف "لا يُنال إلا بصحبة

[1] - ص١٦ نفسه
[2] - ص١٨٨ ج١ الطبقات الكبرى
[3] - ص٢٦٠ شروح رسالة الشيخ أرسلان
[4] - ص١٣ ج١ الطبقات الكبرى
[5] - ص٢٦٠ شروح رسالة الشيخ أرسلان

الرجال"[1]، ومتى كنت من الرجال فسوف تدرك صواب وحقيقة عقائدهم التي تنكرها وأنت في المقامات الدنيا من الطريق، وأنها لمسافة طويلة ما بين المريد الذي ما زال على عقائده والواصل الذي أصبح على العقائد المختلفة، وبالرياضات والتسليم وحسن الظن يتم ترويض واستهلاك المريد ليكون له النطق بعقائد القوم في نهاية المطاف.

وبالمقابل ووفقاً لظروف الحكم الشرعي واهتمام عين الرقيب، نجد أن المتصوفة يشجعون نشر كتبهم بين الناس متوعدين من يمنعها بكل الشر، بل ويقولون إن قراءتها هي العلة في الوصول إلى رضا الله سبحانه وتعالى، فالشيخ علي بن أبي بكر ابن الشيخ عبد الرحمن السقاف يقول: "لو قلب أوراق الإحياء كافر لأسلم"[2]، ثم إن من طالع مثل هذا الكتاب – أي الطبقات الكبرى – ولم يحصل عنده نهضة ولا شوق إلى طريق الله عز وجل، فهو والأموات سواء"[3]، والويل لمن كان عقبة في طريق انتشار كتبهم هذه بين الخلق فقد "نقل ابن السمعاني في رؤيا بعضهم فيما يرى النائم، كأن الشمس طلعت من مغربها، مع تعبير ثقات المعبرين ببدعة تحدث، فحدثت في جميع المغرب بدعة الأمر بإحراق كتبه – أي كتب الغزالي – ومن أنه لما دخلت مصنفاته إلى المغرب أمر سلطانه

---

[1] - ص٤٩٩ حقائق عن التصوف

[2] - ص٦ تعريف الأحياء بفضائل الإحياء

[3] - ص٣ ج١ الطبقات الكبرى

علي بن يوسف بإحراقها لتوهمه اشتمالها على الفلسفة، وتوعد بالقتل من وجدت عنده بعد ذلك، فظهر بسبب أمره في مملكته مناكير ووثب عليه الجند، ولم يزل من وقت الأمر والتوعد في عكس ونكد"[١].

والرسول كما يروي المتصوفة ينتصر للغزالي ويقيم الحد على من همَّ بإحراق كتبه، فقد "ذكر اليافعي أيضاً أن الشيخ الإمام الكبير أبا الحسن علي بن حرزهم الفقيه المشهور المغربي، كان بالغ في الإنكار على كتاب إحياء علوم الدين، وكان مطاعاً مسموع الكلمة، فأمر بجمع ما ظفر به من نسخ الإحياء وهمَّ بإحراقها في الجامع يوم الجمعة فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع فإذا هو بالنبي صلى الله عليه وسلم فيه ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والإمام الغزالي قائم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أقبل ابن حرزهم قال الغزالي: هذا خصمي يا رسول الله فإن كان الأمر كما زعم تبت إلى الله وإن كان شيئاً حصل لي من بركتك واتباع سنتك فخذ لي حقي من خصمي، ثم ناول النبي صلى الله عليه وسلم كتاب الإحياء، فتصفحه النبي صلى الله عليه وسلم ورقة ورقة من أوله إلى آخره ثم قال: والله إن هذا لشيء حسن، ثم ناوله الصديق رضي الله عنه، فنظر فيه فاستجاده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق إنه لشيء حسن، ثم ناوله الفاروق عمر رضي الله عنه فنظر فيه وأثنى عليه كما قال

[١] - ص٨ ملحق إحياء علوم الدين

الصديق، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتجريد الفقيه علي بن حرزهم عن القميص وأن يُضرب ويُحد حد المفتري، فجرد وضرب، فلما ضُرب خمسة أسواط تشفع فيه الصديق رضي الله عنه وقال: يا رسول الله لعله ظن فيه خلاف سنتك فأخطأ في ظنه، فرضي الإمام الغزالي وقبل شفاعة الصديق، ثم استيقظ ابن حرزهم وأُثر السياط في ظهره، وأعلم أصحابه وتاب إلى الله عن إنكاره على الإمام الغزالي واستغفر، ولكنه بقي مدة طويلة متألماً من أثر السياط وهو يتضرع إلى الله تعالى ويتشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن رأى النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليه ومسح بيده الكريمة على ظهره فعوفي وشفي بإذن الله تعالى، ثم لازم مطالعة إحياء علوم الدين، ففتح الله عليه فيه ونال المعرفة بالله وصار من أكابر المشايخ أهل العلم الباطن والظاهر رحمه الله تعالى"[١]. والشيخ أبو الفتح الشاوي أيضاً تبرع بمنام آخر، حيث قرأ كتاب إحياء علوم الدين للغزالي بزعمه على الرسول صلى الله عليه وسلم ليقول: "ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشد سروراً بقراءة أحد عليه مثلما كان بقراءتي عليه الإحياء"[٢].

فالصوفي يحرص على انتشار كتبه بين الناس، وحرصه الأكبر يتجلى في دفعه القارئ للتسليم بما في بطونها على نية أنها من الكتب التي

---

[١] - ص٤ تعريف الإحياء بفضائل الإحياء
[٢] - ص٤ نفسه

رضي الله ورسوله عنها، وبذلك يكون في ظنه ارتفاع الشك والتعارض بينها وبين الإسلام، وكيف يكون التعارض وها هو الرسول صلى الله عليه وسلم قد استحسنها وانتصر لها وعاقب المنكرين عليها، فليس فيها ما هو مشبوه وكل ما فيها من الأحاديث مثلاً فهي صحيحة في انتسابها للرسول صلى الله عليه وسلم فاحذر أيها القارئ من استخدام عقلك وإلا فالعقاب أليم ولا نجاة لك إلا بالتسليم فسلم تسلم!

ولكن ليت شعري، فكل المناهج الخرافية واللامعقولة من الناحية التاريخية تعتمد الرؤية والأحلام والخوارق وإلى ما هنالك برهاناً على صدق مزاعمها ومن صدق أمثال هذه الأحلام أو الدروب فهو المريد المخلص والصالح لصحبة الأولياء.

فالكتب إذن ثلاثة أنواع، الأول: كتب الخصوم، ولا نجاة للمريد منها إلا بالهرب منها، هربه من الشيطان الرجيم والالتجاء إلى أهل الله. الثاني: كتب الأولياء ذوي المقامات العليا أو الواصلون التي فيها الخروج عما هو معلوم ومألوف من العقيدة والشريعة هذه الكتب ممنوع على المريد قراءتها إلا من باب التبرك لا لفهم ما فيها، ولن يؤخذ ما فيها إلا بالتلقي من شيخ له القدرة على تأويل ما تحتويه من فضائح غير مرضي عنها. أما النوع الثالث: فهي الكتب المرضي عنها من الأولياء بشهادة

المنامات، وأن كل ما فيها من ترهات وأحاديث موضوعة صحيحاً ولا غبار عليه بشهادة نبي المنامات!

ـ الكتب الصوفية والمدسوس:

لقد انتشرت كتب الأولياء بين الناس شاءوا ذلك أم أبوا وبشك الناس بعقائد أصحابها انبرى المتصوفة للدفاع عن أنفسهم، ولم يجدوا وسيلة لهم أفضل من فكرة المدسوس، إلى جانب التأويل والكرامة حتى قالوا: "إن ما نراه في كتب الصوفية من الأمور التي يخالف ظاهرها نصوص الشريعة وأحكامها: إما أن تكون مدسوسة عليهم. وإما أن يكون كلاماً قابلاً للتأويل"[1]، والشيخ أبو طاهر المزني يقول أيضاً: "إن جميع ما في كتب الشيخ محيي الدين مما يخالف ظاهر الشريعة مدسوس عليه، لأنه رجل كامل بإجماع المحققين، والكامل لا يصح في حقه شطح عن ظاهر الكتاب والسنة، لأن الشارع – أو الله – أمنه على شرعه"[2].

فالمخالف في كتب القوم للعقيدة أو الشريعة هو برأيهم إما "مدسوس أو مؤوَّل"[3]. والمعنى: أنه حيثما وجدت المخالفة في هذا الكتاب أو ذاك فهي مدسوسة على المؤلف، وإن لم تكن مدسوسة فلا علاج لها إلا بالتأويل، وبالتأويل يكون ستر عورات الأولياء.

ومن طبيعة التقدم العلمي للعصر قال أحد المعاصرين: إن اليهود هم الذين دسوا الكثير من أفكارهم وآرائهم في كتاب "فصوص الحكم"

---

[1] ـ ص٥١٦ حقائق عن التصوف
[2] ـ ص٣ ج١ اليواقيت والجواهر
[3] ـ ص٣ نفسه

لابن عربي، "إن بعض اليهود افتراها على الشيخ قدس الله سره"[1]، أما الشعراني ومن أجل تبرئته لم يكتفِ بتقديس سره بل جعله من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقول: لقد كان ابن عربي "جليس رسول الله صلى الله عليه وسلم على الدوام فكيف يتكلم بما يهدم شيئاً من أركان شريعته؟"[2]. وبناءً عليه فابن عربي بريء مما نسب إليه، ولما عاد إليه الوعي راح يقول: إن الشيخ أبا طاهر قد "أخرج لي نسخة الفتوحات التي قابلها على نسخة الشيخ التي بخطه في مدينة قونية فلم أرَ فيها شيئاً مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات"[3].

فبعد أن استخرج الشعراني إذن من الفتوحات كل ما هو مدسوس ومخالف للإسلام وإذ بالباقي الذي لديه على تطابق تام مع نسخة الفتوحات الموجودة في قونية بخط ابن عربي نفسه، ولكن شرَّاح ابن عربي من الأولياء قد فضخوا قضية المدسوس هذه "وقد شرح كتاب فصوص الحكم عبد الغني النابلسي وغيره فلم يقل أحد منهم أن فيها ما هو مدسوس عليه"[4]. فليس من دس في كتب ابن عربي "هذا هراء، لا يوجد في كتبه أي زيادات- وجميع النقط التي أثارت على ابن عربي الشعور العام في وقته قد أدركها هو ورد عليها في حينه، وهذه النقط نفسها هي

[1] - ص٥٠٨ حقائق عن التصوف
[2] - ص٥١٠ نفسه
[3] - ص٧ ج١ اليواقيت والجواهر
[4] - ص٧٠ التصوف بين الحق والخلق

التي ما زالت تثير الناس في وقتنا الحاضر. بل إن المقارنة أثبتت أيضاً أنه لا فرق بين النسخة المطبوعة في قونية والنسخة المطبوعة في بولاق مصر"[1].

ويقول الشعراني أيضاً وقد أعجبه سلاح المدسوس "وكذلك دسوا عليَّ أنا في كتابي المسمى البحر المورود"[2]، كما قال: بل "دسوا أيضاً على الإمام الغزالي عدة مسائل في كتاب الإحياء"[3]، ويقول الشيخ أحمد بن حجر الهيثمي المكي: "إياك أن تغتر بما وقع في كتاب الغنية، فإنه دسه عليه فيها من سينتقم الله منه، وإلا فهو بريء من ذلك. مع ما انضم لذلك مِنْ أن منَّ الله عليه من المعارف والخوارق الظاهرة والباطنة"[4]. أي: إن خوارقه تشهد ببراءته، وبالخوارق كان برهانهم على صحة استخدامهم للمدسوس، ولا برهان غيره عندهم.

ومن الطريق قول الشعراني أن من المدسوس على ابن عربي: القول بأن أهل النار يتلذذون بدخولهم النار وأنهم لو أخرجوا منها تعذبوا بذاك الخروج"[5]. وربما هو معذور بشهادة أولياء التصوف الذين قالوا: "أنه على البركة".

---

[1] - ص٤٥٩ – ٤٦٠ الروحية عند محيي الدين ابن عربي
[2] - ص٧ ج١ اليواقيت والجواهر
[3] - ص٧ نفسه
[4] - ص٥٠٦ حقائق عن التصوف
[5] - ص٥١٠ نفسه

وبالنتيجة: أنه من أجل الحفاظ على حسن ظن المريد بشيوخ التصوف إن قرأ كتبهم، اختلقوا فكرة المدسوس، كما كبلوه بضرورة الاستماع لتأويلاتهم إن وضع يده على شيء ما مريب، وبالكرامة التي استغنى بها عن عقله كان استخدامهم لها كبرهان على براءة الأولياء، وعلى صواب فكرة المدسوس، وبرماد المدسوس طلبوا التشويش على القراء الأجانب، ولكنها حيلة لم تنطلِ إلا على المريد الغارق في بحر الأوهام.

ملاحظة: إن فكرة المدسوس، لا نفع منها على الحقيقة لأن التصوف أو آراء الأولياء محكومة في علاقة المبادئ بالنتائج، فمن اعتقد منهم بتوحيد لا فاعل إلا الله، وكلهم قد أجمعوا عليه، فلا بد له مثلاً من إسقاط التكاليف من خلال الباطن المستتر بالظاهر، وبالتالي فلا معنى لوجود الجنة والنار مع الجبر، وبالتأويل كانت المساواة بين الجنة والكشف والنار والحجاب، أما ابن عربي ومن حيث هو الرحمة المهداة ومن حيث توحيده للوجود الذي خبأته الكعبة بباطن الحجر الأسود، ليقبّلِه كل حاج ويتجه إليه كل مصل في أمة الإسلام، جعل استحقاق الجنة والنار بالمزاج أو الطبيعة دون الحساب، وبذلك عاد إبليس إلى النعيم إلى داره جهنم حتى إن عُرضت عليه الجنة رفضها وتأذى منها، لأنها للترابيين دون الهوائيين أو الناريين.

ـ الشطح لتأويل الكفر:

مصطلح الشطح هو الآخر من الأسلحة التي استخدمها أهل التصوف لمواراة عورات الأولياء، فإذا ما صرح الولي بزعمه الألوهية كقوله "سبحاني ما أعظم شأني" أو "ما في الجبة إلا الله" وغير ذلك كثير كثير، وإذا ما تجرأ على أقرانه من الأولياء أو على الأعلى منه مقاماً بالشتائم والدعاوي، في صراع بينهم على مناطق النفوذ والتسول والمحافظة على مريديه من التسرب إلى الأولياء الآخرين أو الفرق الأخرى، كقول عبد القادر الجيلاني: "قدمي هذه فوق عنق كل ولي لله إلى يوم القيامة" أو بجعلهم من خدامه وهو الملك عليهم، أو رميهم بجهل التصوف أو الخروج من الإسلام، أو زعمه لمقام لا مطمح لغيره بالوصول إليه، وإلى ما هنالك من هذه السخافات.

وخشية على سمعة الأولياء ومن أجل تنزيههم عن الكفر وسوء الأخلاق كان استخدامهم لمصطلح الشطح، الذي معناه قذف أقوالهم إلى اللاوعي الناتج عن السكر بالوارد، أو عن الاتحاد بالله، وبالحالين يكون الولي معذوراً وهو صادق فيما زعم، وما قوله أنا الله إلا لأن الله هو المتكلم بلسانه، أي هو "ملبوس من الله" كقولنا بالتشبيه: "فلان لابسو جني أو شيطان"، وإن سألتهم عن الفرق بين قول فرعون "أنا ربكم الأعلى" وقول الولي "سبحاني ما أعظم شأني" قالوا: فرعون كافر لأنه

قال ما قال وهو على الفرق، أي الفرق بين الخالق والمخلوق، أما الولي فهو معذور لأنه على حال الجمع الذي انعدم به الفرق بين الخالق والمخلوق.

أما عن تبرئة الولي عن سوء الأدب، فقد قالوا: "فليس لنا إلا التأويل لهذه الألفاظ. فإنا نؤول للسيد الجيلاني القدم باتباع النبي صلى الله عليه وسلم. والشيخ علي الهمذاني يقول: فإن صح الخبر عن الشيخ رضي الله عنه فحالة شطح"[1]، والرواس يقول: "وكلمة الشاذلي قدس سره والتيجاني أيضاً إن صحت عنهما فهي حالة شطح. فهل يصح إلا تأويلها أو القول بعدم صحة إسنادها إليه سواء كان الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه أو غيره من أولياء الله"[2].

أي: لتنزيه أو تبرئة الولي من سوء الأدب وشطط المزاعم، لا بد مما يلي:

١ – نسبة أقواله إلى اللاوعي أو السكر بالوارد أو الاتحاد بالله.

٢ – تكذيب نسبتها إليه وإنكارها أشد الإنكار.

٣ – الاعتقاد بعصمته "قدس الله سره" وبما له من كرامات يكون البرهان على عصمته.

[1] - ص١١٤ قلادة الجواهر
[2] - ص١١٥ نفسه

٤ – تأويل أقوالهم والانحراف بها إلى معان مختلفة عما يقصده قائلها.

وبهذه الأسلحة الفاجرة يكون تنزيه الأولياء عن الكفر وسوء الأخلاق، وحيث أصبح الشطح دلالة الوصول إلى الله أو إلى مقام الجمع، وأسوة بتنزيه أصحابه كان الانتشار الغزير للشطح والتجرؤ على الله عند أهل الله!

ـ الرمز لتضليل الخصوم:

ومن عناصر المنهج الصوفي في الصراع استخدام المتصوفة للرمز بقصد تضليل الناقدين لعقائدهم التي آمنوا بها، فخشية من افتضاح عقائدهم المغايرة لما هو معلوم عند الناس ركبوا متون الرمز ليتحدثوا عنها فيما بينهم دونما حرج من مستمع أو رقيب.

فالرمز عند الصوفي وجد عمداً ليكون حيلة من حيل النجاة، والقشيري يعترف بهذه الخطة قائلاً: "وهذه الطائفة مستعملون ألفاظاً بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم والستر على من باينهم في طريقتهم لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على **الأجانب** غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها"[١]. فهنالك إذن أسرار في عقائدهم وهنالك أيضاً الأجانب الذين هم الفقهاء والمحدثون والعلماء أو كل من أراد إخضاعهم للمعايير، ومن هذين الموقفين كان استخدامهم للرمز.

الرمز هو أحد أسلحة الصراع التي يستخدمها الصوفي ضد مناوئيه وخصومه ففيه الأمان من المطاعن، والسهروردي المقتول قد أفصح هو الآخر عما يعنيه الرمز الصوفي على الحقيقة قائلاً: "عليك بالرمز أيها الصوفي لأنه لا رد على الرمز، وذلك لتوقف الرد على فهم المراد، طالما المراد وهو باطن الرمز غير مفهوم، والمفهوم وهو ظاهره غير مراد،

---

[١] ـ ص٣١ الرسالة القشيرية

فالرد يكون على ظاهر الأقاويل الغير مرادة دون المقاصد المرادة، فلهذا لا يتوجه الرد على الرمز"[1]. وهكذا يكون اختلاف الرمز الصوفي من حيث هو وسيلة للحماية والتضليل عن الرمز بمعنى الاستعارة التي موضوعها الأدب والجمال وإلى ما هنالك، ولكن ما حاجتهم إلى الرمز لمواراة عقائدهم إن كانت عقائدهم وأحوالهم على وئام مع عقائد البيئة التي يعيشون في كنفها؟!

[1] - ص١١٢ شخصيات قلقة في الإسلام

ـ التناقض وأولياء التصوف:

معارف الأولياء لدنية فكلها عن مصدر وحيد إنه الله أو الملائكة، وبوحدة المصدر يجب ألا يكون هناك تناقضاً بين هذا الولي أو ذاك، تماماً كعدم تعارض الأنبياء في عقائدهم، وإذا ما قمت بجمع تناقضات أولياء التصوف فسوف لا يقرون بشيء منها لأن التناقض برأيهم لا علاقة له بوحدة المصدر، فقد يتناقض الأولياء في أهم القضايا وأتفهها، وقد يحقِّر بعضهم بعضاً وكلهم أهل الله، وكلهم على الصواب، وبالمراتب أو اختلاف المقامات يكون رفع التناقض، وإذا ما اختلفت المعاني بين إثنين "فليس بين المعنيين اختلاف في الفهم بل الاختلاف بين الرتبتين"[1] أو المقامين، وباختلاف المراتب كانت فرصة الأولياء للتجريح ببعضهم البعض، وبالمراتب مثلاً طعن ابن عربي بالغزالي لما عمم مقامه الذي لم يرَ فيه الملائكة أو جبريل، على المقامات التي لم يصل إليها بعد مقارنة بمقامه من حيث هو يراه.

المتصوفة ليسوا كأصحاب النظر الذين يختلفون في نتائجهم التي يتنازعون عليها، فأصحاب الكشف لا نزاع بينهم كما يقولون ولا مخاصمة فاختلافهم إنما هو اختلاف في مقاماتهم التي منها اختلاف "أذواقهم ووجدانهم ومداركهم وعلومهم الإلهية العرفانية، فهم متفاوتون

---

[1] ـ ص٢٩٠ ج٢ إحياء علوم الدين

في ذلك بعضهم فوق بعض"[1]. فليس نزاعهم إلا اتهاماً للرأي المخالف باختلاف المقام وحيث لا معايير موضوعية للفصل بين المقامات أصبح المقام الأعلى نهباً لكل من زعمه، ولما استخدموا الكرامات لهذا الفصل وإذ لكل واحد منهم رواية تكفيه للحفاظ على غروره ومزاعمه.

أما اختلاف الولي مع نفسه وآرائه، هو الآخر لا وجود فيه إلى الخطأ والصواب، وابن الفارض مثلاً قال في تائيته:

"ومنـي علـى سـمعي إن مُنعـتُ إن أراك فمـن قبلـي لغيـري لـذت"[2]

أي أنه يعترف بعدم رؤية الله ليكون كموسى الذي منع منها، ومن ثم نراه يقول:

"وإذا سـألتك أن أراك حقيقـة فاسمح ولا تجعل جـوابي تـدثرا"[3]

وبموجب قوله الأخير هذا فهو متأكد من رؤية الله حقيقة وعندما حاول النابلسي رفع هذا التناقض بين القولين قال: إن "للأولياء الكاملين مقامات ينتقلون فيها من حال إلى حال، فحاله الأولى اقتضى أن يقول

---

[1] - ص١٦٧ التصوف في شعر ابن الفارض
[2] - ص١٢٦ الصوفية في شعر ابن الفارض
[3] - ص١٢٦ نفسه

ذلك، وحاله الثاني اقتضى أن يقول بخلاف ذلك"[1]. إلا أن الحالتين واردتان عن علاقة بالله عز وجل تبعاً لاختلاف المقام حسب رأيه، وهذا بالطبع معناه أن موسى عليه السلام الذي لم ير ربه قد أصبح مقامه أدنى من مقام ابن الفارض الذي رآه.

ليس هنالك من تناقض بين الأولياء، لأن التناقض اختلاف أحوال ليس إلا، "فالصوفي – كما يقول الغزالي – لا يتكلم إلا عن حاله فلا جرم تختلف أجوبتهم"[2]، حتى "أنه لو سئل منهم مائة لسمع مائة جواب مختلف قلما يتفق منها اثنان"[3]، "فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق- لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم"[4].

الصوفي ينبئ عن ربه بما سيكون عليه المستقبل، وإذا ما كانت نبوءاته كاذبة فسوف نراه محتجاً بالشأن الإلهي المتغير من قوله تعالى: "كل يوم هو في شأن" والشعراني يقول: "قد يكشف الله لهم عن الأمر فيتكلمون به، فيقعوا بخلاف ذلك وهم صادقون فيما أخبروا به لأن المحو والإثبات واقع ليلاً ونهاراً والحق لا تقييد عليه فيما يفعل"[5]. أي: إن

---

[1] - ص١٢٦ نفسه
[2] - ص٢٤٣ ج٢ إحياء علوم الدين
[3] - ص٢٤٣ نفسه
[4] - ص٨٥ ج٤ نفسه
[5] - ص١٧٣ الأنوار القدسية

المسؤول عن التناقض وكذب الصوفي في تنبؤاته هو الله لا الولي، وبهذا يكون السقوط في البداء سر البراءة لكل الكهان و أخطاء المتنبئين.

التناقض برأي الصوفي لا يعني أن أحد المتناقضين على كذب، وكذب الأخبار لا يعني أن صاحبها كذوب وكاهن، فالأحوال والمراتب والشأن كل أولئك كفيلون في رفع التناقض، حتى أن تناقضاتهم مع أخبار النبوة وتناقض الأولياء مع بعضهم وتناقض الولي مع نفسه، كل ذلك مرفوع بفعل اختلاف التجليات الإلهية، لأن الله كما يقول ابن عربي "لا يكرر تجلياته على شخص واحد، ولا يشرِّك فيه بين شخصين للتوسع الإلهي"[١]، تماماً كاستحالة تكرر المنام أو المنامات، فبالتالي فالكل من الله فهو الأول والآخر والظاهر والباطن ولا تناقض بين ذلك كله. إلا أن الله يقول في كتابه: "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً" صدق الله العظيم.

التناقض محمود والتنافر بين الأولياء مطلوب، والشيخ رويم بن أحمد يقول: "لا يزال الصوفية بخير ما تنافروا، فإن اصطلحوا هلكوا"[٢]. وربما أن الرجل قد يئس من رفع التناقض بين أهل الله، حتى اعتبر التنازع والتناقض من ضرورات استمرار التصوف على قيد الحياة،

---

[١] - ص١٨٤ ج١ بـ٢٤ الفتوحات المكية
[٢] - ص١٨١ طبقات الصوفية

والطريف أكثر أن نرى ابن الفارض قد افتخر بعدم وجود التناقض بين الأولياء ليقول:

"مذاهب الناس على اختلاف ومذهب القوم على ائتلاف
وما أتوا فيه يخرق العادة إذا لم تكن لمن سواهم عاده" [1]

فلولا عدم تناقضهم حسب زعمه لما كانت لهم الكرامات التي تخرق العادة دون غيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى. وهل لنا بعدها التوفيق على الأقل بين الشيخ رويم والشيخ ابن الفارض على شرط منح الصواب لكليهما؟ إن فعلنا ذلك وهذا محال فنحن عندها من أهل التصوف!!

اختلاف المقامات والمراتب، اختلاف التجليات والأحوال، اختلاف الأوامر الإلهية وتغيرها المستمر، هذا كله قد سخروه لرفع تناقضات الأولياء عن التكذيب لتكون العصمة لكلهم دون استثناء ولا أحد عندها له تكذيب مزاعمهم باستخدام تناقضاتهم، والمعني بهذا الأسلوب هم المريدون بالدرجة الأولى ومن ثم الأجانب.

---

[1] - ص١٠١ ج١ الفتح الإلهي

ـ الصوفي كائن إلهي فلا إنكار عليه:

الإنكار على الصوفي فيما يعمل ويقول، غير جائز طبعاً، فكيف يكون الإنكار على رجل معصوم حتى من المكر الإلهي؟ فالواصل على سبيل المثال لا بد أنه قد مرَّ بالمقام المعنوي كما يقول الشيخ عبد الكريم الجيلاني وبهذا المقام "يحصل الأمان من مكر الرحمن وهذا هو المقام الذي لمَّا نزله الشيخ عبد القادر الجيلاني قال: إن الحق تعالى عاهده سبعين عهداً أن لا يمكر به"[1].

الإنكار على الصوفي غير جائز وكيف يكون الإنكار على من شهدت الملائكة بصدقه، فقد "قال الجنيد: رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقال أحدهما لي: ما الصدق؟ فقلت: الوفاء بالعهد. فقال الآخر: صدق ثم صعدا"[2]. وهل الإنكار على الملائكة إلا بالكفر والزندقة؟ وكيف يكون الإنكار على من كان شيخاً للملائكة؟ "فالقوم – كما يقول عبد القادر الجيلاني – التحقت قلوبهم بقلوب الملائكة، قال الله عز وجل: "لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون" التحقوا بالملائكة وزادوا عليهم بالمعرفة بالله عز وجل والعلم به، والملائكة غلمانهم وأتباعهم يستفيدون منهم"[3]!

[1] ـ ص٥٢ ج٢ بـ٦١ الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل
[2] ـ ص١٧٩ الرسالة القشيرية
[3] ـ ص١٢٥ الفتح الرباني

وإذا كانت إجابات الصوفي من اللوح المحفوظ فكيف لأحد الإنكار عليه؟ فالشيخ شمس الدين الحنفي كان يقول: "أما تسأل، فلو سألتني شيئاً لم يكن عندي أجبتك من اللوح المحفوظ"[١]، فهلا علمت أن "كلامهم كالوحي من الله عز وجل ينطقون؟"[٢]، والشيخ عبد القادر الجيلاني يقول: "كلامي حق وأنا على الحق، كلامي من الله عز وجل لا مني"[٣]، فإياكم والإنكار "ولا تهربوا من خشونة كلامي ، فما ذلك مني إني أنطق بما أنطقني به"[٤] سبحانه وتعالى، وإذا ما قال الولي حدثني قلبي عن ربي، عندها لا عصيان لديه ولا معصية ولو فعل الموبقات فلا اعتراض عليه فكل أحواله طاعات وهو مأمور بها كالملائكة في أفعالهم، حتى أن الشيخ أحمد الرفاعي يقول: "بلغت إلى مقام إن عصيت قلبي عصيت الله"[٥]، وكيف الإنكار لمن كان له مقام البقاء في الله؟ "فمن ادعى وصوله إلى هذه الدرجة – كما يقول الشعراني – فلا ننكر عليه"[٦] مهما قال أو فعل، واعلم أيضاً أن رؤية الولي الصوفي كرؤية الله نفسه، فهل إن رأيته على

---

[١] - ص٩٧ ج٢ الطبقات الكبرى
[٢] - ص٢٨٨ الفتح الرباني
[٣] - ص٢٨٩ نفسه
[٤] - ص٢٧١ نفسه
[٥] - ص١٢٩، ١٦١ قلادة الجواهر
[٦] - ص١٦١ الأنوار القدسية

المعصية فهو عاصٍ بالفعل؟ والشيخ داود الكبير يقول: "إذا رأيت من رأى فقد رأيت"[1].

الصوفي كائن إلهي وأحكامه إلهية، ولا اعتراض على الله "فأهل الله تعالى إلى يوم القيامة لا يحكمون على شيء مطلقاً بأنفسهم بل بربهم، فهم يحكمون بالحق سواء كان حكماً شرعياً أو عقلياً أو عادياً، فلم يتبعوا الهوى ولم يضلوا عن سبيل الله، بل اهتدوا إليه سبحانه وما سواهم ضالون"[2].

الصوفي مبشر بولايته منذ الولادة، وكيف يكون الإنكار على المصطفى من الله عز وجل؟ فالشيخ النابلسي مثلاً "بشَّر بولادته اثنان من أهل الجذب. وأحدهما كان يقول لأمه: ابشري بالغلام الكريم"[3].

الصوفي لا يفعل شيئاً إلا بأمر إلهي حتى وإن عاقر المنكر فهو على أمر، بل وله في التعرف على المحرم علامات لا تخطئ فمثلاً "عزم على الشيخ – أبو العباس المرسي – إنسان فقدم إليه الطعام يختبره فأعرض عنه، ولم يأكله، ثم التفت إلى صاحب الطعام وقال: إن كان الحارث بن أسد المحاسبي في إصبعه عرق إذا مدَّ يده إلى الطعام فيه شبه

[1] - ص١٩٢ ج١ الطبقات الكبرى
[2] - ص١١٦ شروح رسالة الشيخ أرسلان
[3] - ص٩٢ التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس

تحرك عليه، فأنا في يدي ستين عرقاً تتحرك عليَّ إذا كان مثل ذلك"[1]. والمهم في رأيي ألا تصبح أمثال هذه العلامات مصدراً تشريعياً للصوفي فيما يأكل ويشرب على احتمال ألا تتحرك عروقه على الخمر مثلاً، ومن حيث أن العروق لا تتعدى حاملها فالشرع الذي لكل الناس هو الأولى في التعرف على الحلال والحرام أو في الاتباع.

الكرامة والمعرفة قد تكونا للصوفي رغم وقوعه في المعاصي والكبائر! "فإذا أطاع العبد الله تعالى – كما يقول عبد القادر الجيلاني – أعطاه المعرفة فإذا عصى لم يسلبها منه ليحتج بها عليه يوم القيامة"[2]. وهذا يعني أن الاحتجاج بالكرامة لبراءة صاحب الكرامات من موبقاته خطأ فادح كما لا حق لأحد حسب الصوفي بربط كرامات صاحب الموبقات بالشيطان من أجل الموبقات، فإن الله لا غيره هو الذي يحاسبه لا أنتم، وبهذا كان الجمع بين الكرامات والموبقات أو الكبائر في الولي الصوفي!!

الصوفي لا يتكلم إلا عما وراء المحسوس أو عما وراء العالم، فأغلب أحاديثه أنباء لا تدرك من أحد سواه، فأنى يكون للمعترض إدراك ما تكلم عنه حتى يكون إنكاره صواباً؟ وابن عربي مثلاً قد افتخر بارتفاعه فوق المعايير المدركة قائلاً وهو ينشد:

---

[1] - ص١٠٤ – ١٠٥ لطائف المنن
[2] - ص٣٠٨ الفتح الرباني

"تركنـــا البحـــار الزاخـــرات وراءنـــا   فمن أين يـدري النـاس أيـن توجهنـا" [1]

إلا أن المنطق العقلي يقول: من رسب في تجربة المُدرك من العلوم الطبيعية فلا بد أن يكون كاذباً فيما يزعمه عما لم يُدرك، وقد رأينا الكثير من جهلياته فيما هو أقرب وأقصد جهله بالطبيعة وبنفسه التي بين جنبيه في غير هذا الكتاب.

الإنكار على الصوفي إذن غير جائز قطعاً، فهو إما معصوم عن الحرام والمكر الإلهي، أو أنه لا يفعل شيئاً إلا بأمر إلهي، فكلامه إلهي وأحكامه إلهية، وهو في جمع دائم مع الله، بل ومصطفى من الله قبل ولادته، حتى أن الملائكة تأتيه لتستفيد منه العلم. وبالتمييز بين الظاهر والباطن أيضاً، كانت نجاة الصوفي برأي نفسه من أحكام المعايير، وبانطلاق الصوفي لما وراء المحسوس موضوع معرفته المفضل، ظن نجاته من العقل، وعندما طلب الهرب من إبليس والتبرؤ من الموبقات كان زعمه المساواة بينه وبين الملائكة.

---

[1] - ص٨٠ ج٢ الطبقات الكبرى

- **الرسول راضي على الصوفي فلا إنكار عليه:**

لا يجوز على المسلم الإنكار على الصوفي إن كان الرسول نفسه قد انتصر له ودافع عنه! والإنكار عندها ليس إلا الإنكار على النبي صلى الله عليه وسلم، فالنبي نفسه يحذر الصوفي من أعدائه المنافقين ويبينهم له، فالشيخ أبو المواهب الشاذلي مثلاً "كان يقول: رأيت مرة حنشاً دخل في ثيابي، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك. فقال: الحنش هو صاحبك فلان- رجع يؤذيك- ثم رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: مقامك كبير وأنت ولي"[1]. فالرسول حسب هذه الرواية قد شهد بولاية الشاذلي وقد بين له أعداءه ليحذرهم، فليس لأحد بعدها من اعتراض على عقيدة الصوفي وسلوكه خاصة أن رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم حق، إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "أصدقكم حديثاً أصدقكم رؤيا" أما المريد فلا تراه إلا مستعظماً هذه المزاعم وبها سيجل شيخه غاية الإجلال، وهو المقصود من أمثال هذه الحكايات غير الخاضعة للصدق أو الكذب، إن لم تكن بحكم العقل أقرب للكذب والاختلاق الساعي لأغراضها الواضحة كل الوضوح.

إن استخدام الأحلام كوسيلة من وسائل الصراع عند المتصوفة يتناسب طرداً مع معارضة الفقهاء وعلماء الرسوم للأولياء، وما أكثر

---

[1] - ص٧٤ ج٢ الطبقات الكبرى

المنامات التي حاكها المتصوفة للدفاع عن الغزالي الذي عارضه المحدِّثون والفقهاء في خروجه عن أصول الدين ليبرؤوه من المآخذ والمطاعن التي توجهت إليه، ويروى أنه كان أحد أئمة العرب كما يقول الطوسي في طبقاته العلية "سيء الظن بالغزالي"[١] فأتاه الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام وأقام عليه حد الفرية، ولما استيقظ "كشف لهم عن ظهره وأثر الضرب في جسده أثراً بيناً"[٢].

ولما استعرض ابن المبارك الآراء التي قيلت عن قول الغزالي "ليس في الإمكان أبدع مما كان" رجح براءته برؤية شيخه وهو بين اليقظة والنوم حيث قال له بشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم: إن الغزالي "قطب- وولي كبير"[٣]. أي من المحال أن يخطئ. ولما عارض المحدثين والفقهاء الشيخ محمد الغمري، رؤي الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام وقد "التفت صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر وعمر وقال لهما: إني أحب هذا الرجل- فأخذ أبو بكر رضي الله عنه عمامة نفسه وجعلها على رأس سيدي محمد الغمري"[٤]. وهل لأحد بعدها من إنكار عليه بأحاديثه التي في الصحاح أو بمخالفة المأثور عنه صلى الله عليه وسلم؟

---

١ - ص١٩٢ الفيلسوف الغزالي
٢ - ص١٩٢ نفسه، ص و ج١ إحياء علوم الدين
٣ - ص٢٥٣ ج٢ الإبريز
٤ - ص٩٠ – ٩١ ج٢ الطبقات الكبرى

وعندما خشي مشايخ التصوف من اختلاط المريدين بالفقهاء، مما يؤدي إلى الزهد بهم، حشدوا لهذا الغرض المنامات الكثيرة أيضاً، فالشيخ أبو عبد الله بن خفيف كما يروي القشيري يرى الرسول صلى الله عليه وسلم في نومه، فقال له: "من عرف طريقاً إلى الله تعالى سلكه ثم رجع عنه عذبه الله تعالى عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين"[١]. فالرسول صلى الله عليه وسلم يهدد الخارجين عن التصوف بأعظم الويل والعذاب، فالويل للمريد المرتد عن التصوف إلى الإسلام!

---

[١] - ص١٨٠ الرسالة القشيرية

- المعصية ستراً للحال فلا إنكار على الصوفي:

ليس من معصية عند الصوفي، وإن أدركته عليها فابحث عن الأسرار التي وراء أفعاله تلك، فقد يخطئ الصوفي مرتكباً للكبائر هذا في ظنك أما في الحقيقة فهو يرتكب المعصية ستراً لأحواله ليكون بعيداً عن الغرور، فهو في صراع دائم مع النفس وأمراضها، ومع تحصيله لكل المعرفة يتظاهر بالجهل لأبسط الأمور الشرعية، وبهذا يكون قد "ستر علمه المحيط بظهور الجهل والسهو وإلى غير ذلك من أوصاف العبودية-. ليستر كمالات الربوبية بنقائص العبودية، ولولا ذلك لكان السر غير مصون والكنز غير مدفون-. ولو كشف عن نور الولي لعُبد من دون الله"[1].

فرحمة بالخلق يرتكب الولي الصوفي الموبقات صغيرها وكبيرها ليسقط من أعينهم حتى لا يعبدوه من دون الله "ومنهم كما يقول – الشعراني والسكندري – من يُنسب إليه بعض العقائد الزائفة في بعض عمره ثم يتغير الحال تأديباً له ولنفسه، لئلا يميل إلى الخلق لكثرة الاعتقاد منهم غالباً فيفسد عليه حاله لأنه يصير عنده ركون إليهم فيشتغل قلبه بمحبتهم والحق غيور لا يحب أن يُرى في قلب عبده المؤمن محبة لغيره لأنه موضع نظره"[2]، "ولذلك لم يجعلهم – كما يقول ابن عربي – إلا

---

[1] - ص١٥٦ ج١ إيقاظ الهمم

[2] - ص١٤٥ – ١٤٦ الأنوار القدسية

مستورين عن غالب خلقه لجلالتهم عنده ولو كانوا ظاهرين فيما بينهم وآذاهم إنسان لكان قد بارز الله تعالى بالمحاربة فأهلكه الله فكان سترهم عن الحق رحمة بالخلق"[١]. فرحمة بالخلق إذن جعلهم سبحانه على الباطل وتلك سنة الله كما يزعمون، فإن الله سبحانه وتعالى عما يصفون يعطي الولي بعض العقائد المنكرة غيرة منه على محبته حتى لا يألفه الخلق أو حتى لا ينشغل بهم وبحبهم دون الله، ومن أجل رحمة الله بالخلق ستر أوليائه بالمعاصي وإلا لأهلك الله الخلق إن عادوهم بحسدهم أو بفساد عقائدهم.

الملاماتيون من المتصوفة هم أيضاً يقترفون المعاصي ويتظاهرون بالزندقة ليس لشيء إلا ليلومهم الخلق على أفعالهم وهذا في رأيهم من أفضل القربات إلى الله تعالى ومن أفضل الأساليب في تأديب نفوسهم وتقويمها، ولما شهد المصريون ذات مرة على الشيخ ذو النون المصري بالزندقة قال المتصوفة تبريراً لزندقته: إنه "كان من الملاماتية فأخفى تقواه بظهوره بين الناس مستخفاً بأمور الشرع"[٢]. ولما لم تنفع أمثال هذه الحجج في التلبيس على الناس اتجه المتصوفة نحو الجنون لاستخدامه وسيلة من وسائل التضليل فمن المعلوم مثلاً أن "الشبلي لم يسلم من اتهام الفقهاء له بالكفر. فأدخله أصحابه المارستان ليرجع الناس عنه وقد

---

١ - ص٨ ج١ الطبقات الكبرى

٢ - ص٣٦١ الصلة بين التصوف والتشيع

نجحت خطتهم فلم يُعدم رغم ما صدر عنه "من فساد عقيدته"ـ. حتى أنه قال: أنا والحلاج شيء واحد، فخلصني جنوني وأهلكه عقله"[1].

أما الشيخ أحمد الرفاعي فقد اعتبر السكوت على أهل الكبائر من الفتوة التي يجب على العارف أن يتحلى بها، فقد "قال رضي الله عنه لسيدي السيد ابراهيم الأعزب قدس سره: إن كنت ترى رجلاً يزني خلف هذا العمود وفرغ وقام ثم كيف أنت تراه؟ فقال: أراه رجلاً زانياً. فقال رضي الله عنه: ليس هذا طريق الفتوة ولا طريق جدك صلى الله عليه وسلم. قال: كيف أراه؟ قال: رجلاً عارفاً!"[2]. وأنعم بهكذا علامات للعارفين من أهل التصوف، وفي الإجمال فإن كان الصوفي مرتكباً للكبائر ومصرحاً بالعقائد الفاسدة فإنه إما مأموراً بذلك من الله، أو إن الله أجراها على يديه ولسانه ليستخلصه لنفسه، أو حتى لا يعبد في الأرض دونه، أو تأديباً لنفسه الأمارة بالسوء ليكون له القرب من ربه، أو هو مع أحواله اللاواعية التي بها كل العذر، ولا فرق عندئذ بين الجنون والفناء، وربما لا تمييز لديهم بين الظاهر والباطن والقول بالشطح وزعم الأسرار إلا بهدف تحرر الصوفي من الأحكام الاجتماعية أو الفقهية أو العقلية.

---

[1] ـ ص٣٨٩ دراسات في التصوف الإسلامي

[2] ـ ص١٨٨ قلادة الجواهر

- أسباب الإنكار برأي الصوفي:

الصوفي برأي نفسه مع الحقيقة، إنه والحق صنوان، فغير جائز الإنكار والاعتراض على هذا الكائن الإلهي. إلا أن الإنكار واقعاً وموجوداً ولا بد للصوفي من تعليل أمثال هذه الظواهر. فأسباب الإنكار برأيه كثيرة وأهمها أن الإنكار على الأولياء من سنن الله تعالى التي لا بد منها، فمشيئة الله أرادت وجود المنكرين على أحبابه "وفي ذلك سر خفي، لأنه لو كان الخلق كلهم مصدقون لذلك الولي لفاته أجر الصبر على تكذيب المكذبين له، ولو كانوا كلهم مكذبين لهم لفاته الشكر على تصديق المصدقين له والمقتفين لآثاره"[1]، حتى أن الشاذلي يقول: "وكلما قوي على الأولياء الأذى دلَّ على علو مقامهم عند المولى"[2]، "فأولياء الله تعالى حكمهم في بدايتهم أن يسلط الخلق عليهم ليتطهروا من البقايا وتكمل فيهم المزايا وكي لا يساكنوا هذا الخلق"[3]، "**ثم تكون الدولة لهم أخيراً**"[4]، فقد جرت عادة الله – كما يقول ابن عجيبة – أن الداخل إلى الله منكوب والخارج إلى الخلق مقرور"[5]، وبإيجاد الله المنكرين راحة للأولياء من العوام، "فاحتجاب الأولياء عن العامة لطف كبير من الله بأوليائه واعتناء

---

[1] - ص٩ ج١ الطبقات الكبرى

[2] - ص١٤٥ ج٢ إيقاظ الهمم

[3] - ص١٤٥ نفسه

[4] - ص١٤٤ الأنوار القدسية

[5] - ص٢٢٥ ج٢ الفتح الإلهي

عظيم منه بأسرار أحبائه"[1]، ووجود المنكرين "رحمة من الله عليك"[2] أيها الصوفي.

فمن أجل أن ينال الصوفي أجر الصبر قرر الله إيجاد المنكرين، فوجود المنكرين نعمة إلهية وتلك هي سنة الله في أنبيائه وأوليائه وما الإنكار الصادر عن الفقهاء أو رجال الدين إلا من علامات الرضى الإلهي على هذا الصوفي أو ذاك.

وبهذه الأساليب تجاوز المتصوفة ما يعنيه النقد الفقهي والعقائدي المرتبط بالشريعة، وكأنها مسألة لا علاقة لها بهذه الأمور، لتصبح القضية قضية فرق بين العوام والأولياء، أو بين الجهلة وبين ما يريده الله ويشاءه.

---

[1] - ص٢٣٦ ج٢ الفتح الإلهي

[2] - ص١٤٩ الأنوار القدسية

ـ الحسد علة الإنكار:

المنكرون برأي الصوفي لا علاقة لهم بالصواب والخطأ، ومن المحال أن يكون إنكارهم لوجه الله أو في سبيله، إنه الحسد والحقد، فقد ضاقت صدور الفقهاء وامتلأت قلوبهم بالحسد على الأولياء بما لهم من كرامة اجتماعية واحترام عند الناس، حتى هبوا كالمسعورين ينهشون أولياء الله، واعلم بأن أعداء التصوف كما يقول أحدهم "باعثهم على الإنكار الحقد والعداوة المتأصلة للإسلام"[١]. فأعداء الصوفي هم أعداء الإسلام، وليس مسلماً من كانت أحقاده معيار أحكامه، "ولم نسمع أحداً قط – كما يقول ابن عجيبة – طعن في علم التصوف أو عابه أو نقصه، بل القلوب كلها مجبولة على حبه وإنما وقع الإنكار على أهله والمنتسبين إليه إما غيرة عليه "وهذا فيما بين الأولياء"-. وإما حسداً لأهله وهذا هالك مثبور"[٢]، وابن عربي يقول: "ولا يخفى أن أصل الإنكار من الأعداء المبطلين إنما ينشأ من الحسد، ولو أن أولئك المنكرين تركوا الحسد وسلكوا طريق أهل الله لم يظهر منهم إنكار ولا حسد"[٣].

وكيف للفقهاء ألا يحسدوا أولياء التصوف على مزاعمهم؟ فالشيخ محمد أبو الهدى الصيادي مثلاً يقول مصارعاً حساده: "وهنا أقول: قد

---

[١] ـ ص٥٦٠ حقائق عن التصوف
[٢] ـ ص١٣٧ ج١ الفتح الإلهي
[٣] ـ ص١٦ ج١ اليواقيت والجواهر

ثبت لي ولله الحمد والشكر مزية الوراثة للسلف الصالح ولهداة سادات الأمم من النبيين والمرسلين والأولياء العارفين والعلماء العاملين والحكماء المتقين والعظماء المؤيدين والعقلاء المدققين. فصرت من المحسودين"[١]. فليت شعري! وكم هو مجنون ذلك الحسود المصدِّق لهذه المزاعم!! والمقصود بالتالي من اتهام أعداء الصوفية بالحسد، إنما هو تهميش أحكام الفقهاء والعلماء عن علاقتها بسلوك الأولياء وعقائدهم.

---

[١] - ص٣٦٤ أشرف الوسائل

ـ المنكر يعكس أحواله:

أهل الله لا يعصون الله ما أمرهم فهم كالملائكة في كل أحوالهم، وإن بحثت عن المنكر في حقيقته الداخلية أو النفسية كما يقولون فهو العاصي. فقد ترى الولي زنديقاً ولكنك أنت الذي تراه زنديقاً، والإناء ينضح بما فيه، وما هو بزنديق! والشيخ علي ولده "كان يقول: جميع ما تراه من المحققين راجع إليك، فمن رآه زنديقاً فذلك الرائي هو الذي سبق له أنه زنديق، وأما حقيقة ذلك المحقق فلا يراها إلا من هو في كماله أو من هو محيط به"[1]. فكيف للمنكر أن يتهمه بالزندقة ولم يحط به خبرا ولا هو بمنزلته فلا حق في الإنكار، وما الإنكار حقيقة إلا ما وجده المنكر في نفسه حتى قذفه به، وأبو يزيد البسطامي مثلاً يقول عن شطحاته اللامعقولة وجرأته على الله: "من الناس من يزورني فيرجع عني وهو في لعنة الله، فقيل له: كيف ذلك؟ قال: ربما يزورني الإنسان فتكون عليَّ غلبة الحق، فيرجع عني فيعذرني، فيرجع عني وهو في رحمة الله. ومنهم من يزورني فيرى علي غلبة حال، فينقلب عني وينقطع فيَّ فينقلب عني وهو في لعنة الله"[2]. فمن عذره في قوله "سبحاني ما أعظم شأني" فهو في رحمة الله، ومن أنكر عليه فهو الملعون الذي امتلأ قلبه بالحسد والحقد، وما الفرق عندها بين من عذر ومن أنكر إلا في وجود الحق أو القرب

---

[1] ـ ص٥٩ ج٢ الطبقات الكبرى

[2] ـ ص١٣٨ النور من كلمات أبي طيفور

الإلهي فإن كان القرب مع الرائي فقد عذر وإلا فهو المنكر الذي حكَّم هواه فيما يرى ويسمع، واسمعوا مثلاً قصة الفقيه الذي كان منكراً على أبي يزيد هذا حتى نهى الناس عن صحبته بحجة أن أبا يزيد لا يقيم الفرائض والتكاليف ولا يأبه بهما "فقال أبو يزيد: قولوا له: عليك بنفسك، فالزم دينك!ـ. فقضى أن الفقيه مرض فأوصى أنه لا يدفن في مقابر المسلمين فإنه كان على دين النصارى"[١]. فهل بربكم من علاقة بين الإسلام وإنكار الفقهاء على المتصوفة، وها هو أحدهم كما ترون فقيه من أصحاب الظاهر، وهو في الباطن نصراني يضمر الشر والكيد للإسلام والمسلمين، ومن شره كان إنكاره الذي عكس أحواله، والشيخ داود الكبير يرى هو الآخر أن كل منكر على أهل التصوف إنما هو مشرك وفي ذلك يقول: "إنما صدَّ الناس عن العارف المحقق وجود شركهم"[٢]، والشيخ عبد القادر الجيلاني الذي جعل من نفسه معيار الصواب واليقين يرى أن النفاق هو مصدر الإنكار، يقول: "الثبات على كلامي علامة الإيمان والهرب منه علامة النفاق"[٣]، "فيا خيبة من يؤذي قلوبهم – أي قلوب الأولياء – يا مقت الله عز وجل له يا حرمان الله عز وجل له، يا غضب الله عز وجل له"[٤].

---

[١] - ص١١٩ نفسه
[٢] - ص١٩٣ ج١ الطبقات الكبرى
[٣] - ص٢٩٦، ٢٩٨ الفتح الرباني
[٤] - ص٢٣٨ نفسه

فأصحاب الإنكار برأي الصوفي إذن هم المشركون والمنافقون والمغضوب عليهم من الله عز وجل، والإنكار حسب الشيخ أبو تراب النخشبي أيضاً من علامات المعرضين عن الله، فقد كان "يقول: إذا ألف العبد الإعراض عن الله تعالى صحبته الوقيعة في أولياء الله"[١]، والإنكار على أولياء التصوف من علامات أهل الهوى عند ابن عجيبة القائل: "من لم يسعده الله بملاقاة العارف فلا شك أنه في هوى نفسه تالف"[٢]، بل إن الإنكار عند الشاذلي من علامات المطرودين عن باب الله، "فإذا رأيت نفسك – كما يقول – معرضة عن مودة أهل الله تعالى، فاعلم أنك مطرود عن باب الله"[٣]، أما الشيخ عبد الكريم الجيلاني فيقول مختصراً كل المنهج الصوفي في الصراع عن كتابه "الإنسان الكامل" بقصد رفعه فوق النقد والشبهات: "إني ما وضعت شيئاً في هذا الكتاب إلا وهو مؤيد بكتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. إنه إذا لاح له شيء – أي للمنكر – في كلامي بخلاف الكتاب والسنة فليعلم أن ذلك من حيث مفهومه لا من حيث مرادي الذي وضعت الكلام لأجله فليتوقف عن العمل به مع التسليم إلى أن يفتح الله تعالى عليه بمعرفته ويحصل له شاهد ذلك من كتاب الله تعالى أو سنة نبيه. **فإن من أنكر شيئاً من علمنا هذا حرم الوصول إليه ما دام منكراً**. فقد يكون العلم في نفسه مؤيداً بالكتاب والسنة ولكن **قلة**

---

[١] - ص٥ ج١ الطبقات الكبرى
[٢] - ص٢٣٣ ج٢ الفتح الإلهي
[٣] - ص٧٩ ج٢ الطبقات الكبرى

استعدادك منعتك من فهمه فلن تستطيع أن تتناوله بهمتك من محله فتظن أنه غير مؤيد بالكتاب والسنة، فالطريق في هذا التسليم وعدم العمل به من غير إنكار إلى أن يأخذ الله بيدك- من ثلاثة أوجه: الوجه الأول: المكالمة- . أو تجلياته-."[1].

فعلى القارئ إذن التسليم بأن كتابه الذي فيه أو بمبادئه كل الخروج عن الإسلام وتوحيده، ليس فيه معارضة للقرآن والسنة، ومن أدرك شيئاً من ذلك فليس له إلا التسليم مع عدم الإنكار، أو لينتظر تجلياته تعالى عليه أو حتى يكلمه الله كما كلم موسى عليه السلام، فإن كان له هذا، عندها وعندها فقط له الحكم بالصواب أو الخطأ لما يقرأ، ولا سبيل غير ذلك.

وبرفع الحكم عن الصوفي إلى الكلام مع الله أو تجلياته يكون قد تخلص نهائياً من الأحكام الموجودة في دين محمد صلى الله عليه وسلم على مستويي العقيدة والشريعة أو الفصل بين ما للنبي وما للولي.

---

[1] - ص٥ ج١ الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل

ـ الجهل والغباء علة الإنكار:

الصوفية معصومون عن مخالفة الشرع، "فكلهم – كما يقول الشعراني – عدول في الشرع اختارهم الله عز وجل لدينه، فمن دقق النظر علم أنه لا يخرج شيء من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة، وكيف تخرج علومهم عن الشريعة والشريعة هي وصلتهم إلى الله عز وجل؟"[1]. فبالشريعة ومراعاتها كان إذن اتصال أهل التصوف بالله والاتحاد به، وبالشريعة كما يزعمون كان لهم الفتح والكشف والكرامات، فمن أين جاء الإنكار الشرعي إذن، وهو المحدود بالظاهر والباطن؟ فالصوفي في الظاهر ووفقاً لأحكام الظاهر مخالف للشرع، ولكنه على الحقيقة أو في الباطن والتأويل لا مخالفة عنده وكل منكر عندها فهو منكر بجهله وغبائه أو قصور إدراكه عن مرام القوم في كلامهم وسلوكهم ومصطلحاتهم "فكيف تحدثك نفسك – كما يقول النابلسي – أنك تقدر أن تفهم كلام هذه الطائفة وأهل هذا الإدراك المخصوص، بل كيف تحدثك أنك تعترض عليهم بفهمك في معاني كلامهم ما لم يريدوه من كلامهم على مقتضى إدراكك الوهمي، وغفلتك التي هي حجابك عن ربك، ما هذا إلا اعتداء منك وافتراء وجرأة على خاصة عباد الله المكرمين"[2]، والمنكر هو "الإنسان الغافل الجاهل المغرور بصور الأعمال الظاهرة. فينكر

---

[1] - ص٤ ج١ الطبقات الكبرى

[2] - ص٣١٩ التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس

على العارفين بقياس عقله مستنداً في ذلك إلى ظواهر نقله"[1]. ولو كان من أهل الله أو أهل العلم لعرف بأن الشريعة ليست بقشرتها مقارنة باللب الذي فيه الحقيقة، فمن المعيب والغباء تعميم أحكام الظاهر على الباطن الذي فيه حقيقة أهل التصوف والولي دائماً وأبداً لم ولن يحيد عن هذه الحقيقة، فلا إنكار عليه إلا من جهل المنكر، ومن "لم يفهم مقصدهم فالتسليم له أولى"[2]، "فلا يجوز أن يعتقد في هؤلاء السادة أنهم زنادقة في الظاهر لكتمهم ما هم متحققون به في الباطن عن العلماء والعوام، وإنما يجب علينا حملهم على المحاميل الحسنة في كوننا جاهلين باصطلحاتهم"[3]، وابن عربي هو الآخر لا يرى في المنكر إلا جهولاً لا باع له في العلم، يقول:

"فمن أنكر العلم الذي قد شرحته فليس هو الشخص العليم المقرب" [4]

وكل الذين نازعوه بآرائه هم من الجهلة البعيدين عن الله حيث أنشد:

"ومن ينازعني فيما أفوه به فالناس كلهم أعداء ما جهلوا" [5]

---

[1] - ص٧٤ الصوفية في شعر ابن الفارض
[2] - ص15 ج٢ الإبريز
[3] - ص١٢ ج١ الطبقات الكبرى
[4] - ص١٣٥ ج٢ بـ٧٣ الفتوحات المكية
[5] - ص٢٦٢ ج٣ بـ٣٥٨ نفسه

والنابلسي يقول: "إن الطاعنين على ابن عربي لم يفهموا كلامه، لقصور عقولهم وقلة علمهم"[١] والشيخ قطب الدين الشيرازي يقول: "لا يقدح فيه إلا من لم يفهم كلامه ولم يؤمن به"[٢]. فلو آمن بعصمته ما أنكر عليه، وسراج الدين البلقيني يقول: لقد كفره الناس "بتلك العبارات ولم يكن عندهم معرفة باصطلاحه"[٣]. وعلى الخلق أن يعلموا كما يقول مجد الدين الفيروز أبادي أنه "كما أعطى الله تعالى الكرامات للأولياء التي هي فرع المعجزات، فلا بدع أن يعطيهم من العبارات ما يعجز عن فهمه فحول العلماء"[٤]، وإجمالاً فمن "تعرض لتخطئة مثله أو تكفيره فإنما هو لجهله أو لحرمانه أو لعدم فهمه وضعف إيمانه وعدم مبالاته بفلتات لسانه"[٥]، "وبالجملة فما أنكر أحد أحوال الصوفية إلا من جهل حالهم"[٦]، "ومن لم يعرف الله – كما يقول أبو يزيد – فلا يعرف قول العارف"[٧]، بل وحتى إن "أنكر عليهم عالم – كما يقول ابن القيم الجوزية – قالوا لأتباعهم: هذا موافق لنا في الباطن وإنما يُظهر ضد ما نحن فيه للعوام

---

[١] - ص١٢١ التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس
[٢] - ص٩ ج١ اليواقيت والجواهر
[٣] - ص١٠ نفسه
[٤] - ص١٢ نفسه
[٥] - ص١٢ نفسه
[٦] - ص٤ ج١ الطبقات الكبرى
[٧] - ص١٢٥ النور من كلمات أبي طيفور

ضعاف العقول، فإن جدَّ في خلافهم قالوا: هذا أبله مقيد بقيود الشريعة محجوب عن المقصود"[1].

فالإنكار غير جائز، والمنكر جهول ومحجوب، جهول بالتمييز بين الظاهر والباطن، جهول بالمصطلح، جهول بالحقائق والأسرار، ومن أراد الله به خيراً فلا بد له من التسليم لهم والإيمان بعصمتهم، وبذلك يكون زوال الغباء والجهل والبعد عن الله!

---

[1] - ص٣٦٤ تلبيس إبليس

ـ المنكر معاقب:

الكلام الصوفي معجز صعب الفهم!! وكل ما يحتاج إليه هذا الكلام هو ترك العقل جانباً والتسليم بصحته، وبغير ذلك فلا حياة لأفكار القوم وعقائدهم في البيئة الإسلامية، بل ومن أجل التسليم توعدوا المنكرين بأشد ما لله من عقوبة للمنكرين القائلين بضرورة الانقياد لأحكام الشريعة والعقيدة، والرواس يقول: "وإن تهجَّم من قلب حيرته بفريته علينا أذابته يد القهر من السماء كما يذوب الملح بالماء، وإن التحق بنا وصار من رجال ركبنا فقد دخل الصف المأمون"[1]. واختر إن كنت ذا لب بين أن تكون في الصف المأمون أو أن تكون عدواً لله الذي لم تنج من يده القاهرة، فإياك وأولياء التصوف فلا تقرّبوا من الأولياء إلا بالأدب – كما يقول الشيخ أبو الفضل الأحمدي – وإلا فيمقتون على أقل من القليل وينفِّذ الله مراده فيكم"[2].

واحذر أيها العاقل غضب أهل التصوف وإلا آذوك بهمتهم التي تفعل الأفاعيل، "فالفقراء – كما يقول شمس الدين الحنفي – ما عندهم عصا يضربون بها من أساء الأدب في حقهم وما عندهم إلا تغير خواطرهم"[3]، وها هو المؤذِّن الذي أنكر مرة على فاطمة بنت أبي المثنى

[1] ـ ص٣٤٣ أشرف الوسائل
[2] ـ ص١٧٦ ج٢ الطبقات الكبرى
[3] ـ ص١٠٠ ج٢ نفسه

قد انتقم الله لها فصفعه حاجب الملك لتقول بعدها: "ولولا إني سألت التخفيف عنه لقُتل"[1]. فقد سخَّر الله لها حاجب الملك حتى انتقم لها من ذلك المنكر.

والشيخ عبد القادر الجيلاني كعادته يصرخ في وجوه الناس ليخيرهم بين أن يصدقوه لينالوا الفلاح أو يكذبوه ليكون لهم العقاب من رب العالمين قائلاً: "من صدقني في الصحبة انتفع وأفلح، ومن كذبني وكذب في صحبتي حرم وعوقب عاجلاً أو آجلاً"[2].

قراءة كتب المنكرين قد تؤدي إلى عمى القارئ، فأبو عبد الله ابن زيد اليابري "قرأ ليلة تأليف أبي القاسم بن أحمد في الرد على أبي حامد الغزالي، فعمي فسجد لله من حينه وتضرع وأقسم أنه لا يقرأه أبداً ويذهبه فرد الله عليه بصره"[3]. فإياك إياك أيها المسلم من قراءة كتب الفقهاء وعلماء الدين الذين هاجموا أولياء الله وطعنوا بأخلاقهم وعقائدهم، وإلا فإن الله سيبتليك بالعمى إن لم تحرق كتبهم وتتوب عن قراءتها واعلم بأن "الأدب في حق العارف فريضة"[4] كفريضة الصوم والصلاة، ومن الفريضة أيضاً عداء أعدائهم والتبرؤ من أحكامهم.

---

[1] - ص٨٥ روح القدس في محاسبة النفس
[2] - ص١٠٤ الفتح الرباني
[3] - ص٨٢ روح القدس في محاسبة النفس
[4] - ص٢٩٧ الفتح الرباني

المنكر معاقب على الأقل بعدم المنفعة من الأولياء أولياء التصوف، "ومن كان شأنه الإنكار لا ينتفع بأحد من أولياء عصره وكفى بذلك خسراناً مبيناً"[1]. وهل لأحد الغنى عن شفاعتهم يوم الدين، وهل من أحد إلا وقد يمرض فإلى أين سيذهب لشفائه، وهل عند غيرهم الشفاء من كل ما أعيا الأطباء، وماذا إن سحرك أحدهم، فهل إلى غيرهم ستذهب؟ فإياك إياك والإنكار عليهم لأنك لن تجدهم إن احتجت إليهم فكن على حذر والزم الأدب بحقهم غائبين كانوا أو حاضرين، ومن الأدب أيضاً ألا تدخل عليهم وبرأسك عقل يحمل الموازين، "فمن قصد الأولياء بالميزان فلا ينال إلا الحرمان، ومن أتاهم بالتعظيم وحسن الاعتقاد نال من الله كمال المحبة وحسن الوداد"[2]. وليعلم كل أصحاب العلوم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم بأن الإنكار على الولي الصوفي سيؤدي إلى عقابهم بعقد علومهم وقد أعذر من أنذر، "فالتسليم – كما يقول ابن عجيبة – وقاية. وتأمل أيها المنكر فيما وقع مثلاً لابن هارون من القرَّاء "أو العلماء" حيث نقضه في باطنه فسلبه من ساعته وفقد ما كان عنده من العلوم والأنوار حتى تاب إلى الله وذهب إليه معتذراً وتحلل منه. وكذلك قصة الفقيه البلقيني مع بائع الحشيش حيث اعترض عليه بقلبه ففقد علمه وحاله حتى تاب"[3]. فليس لأحد الاعتراض على الصوفي حتى ولو كان يبيع الحشيش أو

---

[1] - ص٦ – ٧ ج١ الطبقات الكبرى

[2] - ص١٢٨ ج٢ الفتح الإلهي

[3] - ص٢٦٠ ج٢ الفتح الإلهي

المخدرات ويروجها بين الناس، فدعكم من الظاهر لعلكم تنتفعون ببركة وليكم.

لا تكذبوا المتصوفة ولا تنكروا عليهم لأن الله سيبتليكم بالكذب بالدعاوي الكاذبة لتكون لكم الفضيحة عقاباً على جرأتكم على أحبابه أو محبيه وهذا ما توعد به الشيخ ابراهيم القرمسيني أعداء التصوف قائلاً: "من ترك حرمة المشايخ ابتلي بالدعاوي الكاذبة وافتضح بها"[١]. فسلِّم تسلم.

المنكرون معاقبون بالهلاك والموت الزؤام وسهل التستري يقول: "كان بالبصرة ولي لله تعالى فعاداه قوم وآذوه فغضب الله عليهم فأهلكهم أجمعين في ليلة"[٢]، والشيخ أبو الحسن الشاذلي يقول: "كان إذا آذاني إنساناً يهلك للوقت. لحوم الأولياء مسمومة"[٣] من عضها مات، فدعوا الأولياء وشأنهم وإلا فالموت لكم لا ميتة واحدة وإنما ثلاث ميتات، "فمن اعترض على أحوال الرجال – كما يقول الشاذلي – فلا بد أن يموت قبل أجله ثلاث موتات أخر: موت بالذل، وموت بالفقر، وموت بالحاجة إلى الناس ثم لا يجد من يرحمه منهم"[٤]. فإن كنت عزيزاً أيها المنكر فلا بد من عقابك بالذل، وإن كنت غنياً فلا بد من عقابك بالفقر، وإن كنت في منعة

---

١ - ص٤٠٥ طبقات الصوفية، ص١١٤ ج١ الطبقات الكبرى
٢ - ص٧٩ ج١ الطبقات الكبرى
٣ - ص١٣٥ لطائف المنن
٤ - ص١٠ ج٢ الطبقات الكبرى

فلا بد من عقابك بحاجة الناس، وإن كنت عالماً فلا بد من عقابك باستلاب العلم وما أكثر الدروب التي يعاقب الله بها المنكرين.

الإنكار على الصوفي يؤدي إلى عجز المسلم عن نطق الشهادتين عند الاحتضار، "فمن وقع في أولياء الله تعالى – كما يقول سويد السنجاري – ابتلاه الله بانعقاد لسانه عن النطق بالشهادتين عند الموت"[1]. ولكم نتمنى بالفعل أن يكون لتوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله من وزن أمام ما يعتقده الصوفي من توحيد لا معبود ولا فاعل ولا موجود إلا الله؟!

المنكر معاقب بهلاك دينه، أيحب أحدكم أن يصبح يهودياً أو نصرانياً؟ "فإياكم والإنكار على شيء من كلام الشيخ محيي الدين ابن عربي – كما يقول سراج الدين المخزومي – فإن لحوم الأولياء مسمومة وهلاك أديان مبغضيهم معلومة، ومن بغضهم تنصر ومات على ذلك، ومن أطلق لسانه فيهم بالسب فابتلاه الله بموت القلب. فلا يجوز لأحد من العلماء الإنكار على الصوفية. لأن أقل ما يحق على المنكر حتى يسوغ لهم الهم بالإنكار أن يعرف سبعين أمراً ثم بعد ذلك يسوغ له الإنكار"[2]. فالإنكار حسب رأيه مشروط، فعلى العلماء المنكرين أن يكون لهم المعرفة بسبعين أمراً أو سراً من أسرار التصوف حتى يكون لهم الإنكار، وإلا فهم هالكون بأديانهم وموت قلوبهم.

---

[1] - ص١٥٣ ج١ الطبقات الكبرى

[2] - ص٣٦٠ قلادة الجواهر

المنكر على الصوفي معاقب بفقد الإيمان، وكأن للإيمان عندهم من قيمة أمام الكشف والعيان!! وفي ذلك يقول رويم: "من قعد مع القوم وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله نور الإيمان من قلبه"[1]، والنابلسي يقول عن أهل التصوف: "هم عقلاء الله المحقون الكاملون، فاحتفاظ القلب من هؤلاء المحققين في مجالستهم بالأدب والاحترام، أمر لازم على جميع الأنام. وقد ورد: من جالسهم وخالفهم نزع الله تعالى من قلبه حلاوة الإيمان"[2]، وقد "كان "الشاذلي" رضي الله عنه يقول: إذا أراد الله أن يسلب إيمان عبد عند الموت سلَّطه الله على ولي يؤذيه"[3]، "وكان الجنيد رضي الله عنه يقول: "من قعد مع هؤلاء القوم وخالفهم بشيء مما يتحققون به نزع الله تعالى منه نور الإيمان- والشعراني يقول: "من كان يخبر عما يعاين ويشاهد لا يجوز للسامع منازعته فيما أتى به، بل يجب عليه التصديق إن كان مريداً والتسليم له إن كان أجنبياً، فإن علوم القوم لا تقبل المنازعة"[4]، "وليحذر "المنكر"- من الوقيعة في القوم فإنها من أعظم المهالك"[5]، "فإياك أن تصغي – كما يقول الخواص – لقول منكر

---

[1] - ص٨٨ ج١ الطبقات الكبرى، ص١٨٢ طبقات الصوفية، ص٢١ الرسالة القشيرية
[2] - ص١٣٠ الصوفية في شعر ابن الفارض
[3] - ص١١٧ ج٢ الطبقات الكبرى
[4] - ص١٠ ج١ الطبقات الكبرى
[5] - ص١١ نفسه

على أحد من طائفة العلماء أو الفقراء فتسقط من عين رعاية الله عز وجل وتستوجب المقت من الله عز وجل"[1].

فالصراع كما يريد أن يراه الصوفي ليس عن مخالفة لله أو لرسوله وإنما مع الفقهاء الفجرة والمحدثين الفسقة، إنه مع أصحاب الحسد والأحقاد، إنه صراع مع من لا إيمان لهم، إنه صراع مع الشرك والوثنية مع أعداء الله، وتلك هي غاية المنهج الصوفي بكل أحابيله تلك.

ولكن ما الذي سيفعله إن لم ينفع هذا الإرهاب الفكري الذي استخدمه، وماذا إن استهزأ الخلق بأسلوبه الخمج؟ عندها سنراه مكشراً عن أنيابه ساعياً لسحق أعدائه بكافة السبل المتاحة بلا هوادة ولا رحمة، ولا فرق عندها إن استخدم السلطان والتآمر، أو إن استخدم الخوارق وما يتمتع به من علوم السحر، فالشيخ أحمد الرفاعي يقول: "نحن أهل بيت لحومنا مسمة من شمها مرض ومن عضها مات"[2]، والشيخ عبد القادر الجيلاني يقول مخاطباً المنكر بعد أن فرغ صبره: "لا تخاطر برأسك معي"[3]، "فقلبي مليء غيظاً عليكم – أيها المنكرون – غيرة لله عز وجل، إن سكتم وتركتم المزاحمة وإلا أحرقت دوركم عليكم يا خائبين"[4]، والنابلسي يقول: "اتفل في وجوه المنكرين الجاهلين- قطعهم الله

[1] - ص١٠ نفسه
[2] - ص٣٤١ أشرف الوسائل
[3] - ص٢٤٧ الفتح الرباني
[4] - ص٢٩٧ نفسه

ودمرهم"[1]، ولن يتوانى أولياء التصوف عن تشجيع مريديهم لضرب المنكرين عليهم، فقد حدث "أن بعض الناس طعن في أبي يزيد طعناً، فسمع بعض محبيه قوله، فلطمه لطمة. فبلغ ذلك أبا يزيد رضي الله عنه فقال: إن لم يكن مثل ذلك الرجل فمن يلطم مثل تلك اللطمة!"[2]. فهذه اللطمة لتلك الطعنة حتى أن الشيخ عبد القادر بن عنان "يقول: كل فقير لا يقتل من هؤلاء الظلمة عدد شعر رأسه فما هو فقير" أو من أهل الله، والشيخ محمد أبو الهدى الصيادي يقول عن أحد القائلين: أن الصوفي ينجس التراب الذي تحته إنه "من الذين يسعون في الأرض بالفساد وتعزيره بالحبس المديد، والضرب الشديد إلى أن يتوب، وإن لم يتب فللإمام نصره الله أن ينفيه أو يقتله كذا حكم الله"[3] وحكم أحباب الله.

ولن يتوانى الصوفي أيضاً عن استخدام ما لديه من علوم السحر في قهر المنكرين عليهم، فقد حدث أن "أنكر – الشيخ علي الألوف – على القوم هذه الرايات والأعلام، فأمره – الشيخ رجب الصيادي قدس الله سره – بحمل علم وكرر النظر إليه فاختطفه العلم على رؤوس الأشهاد بين المئات من الناس، إلى أعلى قبة هناك لبعض الأولياء، وبقي يدور حول هلال القبة كالرحى السريعة فانذهل الناس لذلك، وضجوا بالبقاء إليه

[1] - ص٣٠٥ التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس
[2] - ص١١٦ – ١١٧ النور من كلمات أبي طيفور
[3] - ص٣٠٤ أشرف الوسائل

ثانية، فاختطف إلى الأرض وسقط غائباً عن نفسه لم يعلم كيف صعد ولا كيف هبط!!"[1].

ـ ملاحظة:

التصوف كما رأينا منهج لا وجود له ولا قيام له مع وجود العقل، ولتجريد الصوفي لمريديه من عقولهم منعهم من الاختلاط بعلماء الدين والاستماع إلى حجج إنكارهم بل ومنعهم من قراءة كتب الفقه والحديث وكل الكتب، كما دفعهم بالعصمة والتسليم وحسن الظن والمراتب والأسرار لإنكار إدراكهم وتجهيل أنفسهم.

الصوفي إن قلنا بالعقل فهو مشعوذ فقد شعوذ على الدين بجعله التصوف فرض عين على المسلم، وشعوذ على الرسول صلى الله عليه وسلم عندما جعله بمناماته مؤيداً له وراض عنه بكل ما كان منه من مخالفة لسننه المأثورة، وشعوذ على الله بزعمه آمراً له باجتراح المعاصي وارتكاب الموبقات غيرة واستخلاصاً لنفسه، ومن الشعوذة زعمه الاصطفاء وقبل أن يولد، ومن شعوذاته على الفكر أن نعت أفكاره الخارجة عن المعقول بالأسرار بالباطن بالمدسوس، وللشعوذة تسلح بالتأويل والرمز واللاوعي سواء بالشطح أو بالحال والجنون، وبالشعوذة على السذج جعل من عقائده ألغازاً لا يعرف حقيقتها إلا الواصلون إلى

---

[1] - ص١٤٤ ـ ١٤٥ نفسه

الله، وبالشعوذة أيضاً جعل من رضاه رضى الله نفسه، وبها جعل الكرامة برهاناً على صدق مخالفته للشرع والعقيدة حتى أصبحت سلاحه المفضل لإيذاء خصومه، وبالشعوذة جعل الله معاقباً للمنكرين عليه عندما ربط الإنكار بالحسد بالحقد بالسنن الإلهية بالجهل بالغباء بالمراتب، وبهذا في ظنه يكون انتقال الصراع من صراع حول المعاني والأصول الدينية والعقلية، إلى صراع مع الرذائل المنكرة التي تميز بها أعداءه حسب زعمه.

وبوجود تلك البيئة الراضخة لمسلمات هذا المنهج، كانت قوة الصوفي وبقائه وسوف يبقى طالما هناك وجود للسذج وطالما هناك جهل باستخدام العقل وجهل بالدين والتصوف على السواء.

ـ صراع أولياء التصوف فيما بينهم:

إن الصراع بين الأولياء أهل الله وأحبابه مستمراً دائماً مذ وجدت الظاهرة الصوفية في العالم الإسلامي، ولذلك أسباب ذات مغزى عظيم، ومن أهمهما صراعهم على موارد الرزق وعلى النفوذ الاجتماعي وعلى تحصيل أكبر عدد ممكن من المريدين، وإن هذه الأسباب غالباً ما تختفي تحت معنى القرب والبعد الذي سيسمح في نهاية المطاف باستخدامهم لإبليس كأداة طيعة لاتهام بعضهم بعضاً، حتى لتظن أنهم جميعاً من رعاياه، ولكن ما هكذا سير الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، وأولياء التصوف على كل حال مشكورين لأنهم لم ينسبوا صراعهم هذا إلى الإرث النبوي كما هي عادتهم.

كل شيخ من مشايخ الطرق الصوفية برأي نفسه هو الأعظم، وهو العارف الوحيد بالله، وهو الأقوى بخوارقه، وكل من سواه من الأولياء هم دونه منزلة ومقاماً إن لم يكونوا من أولياء الشيطان، والشيخ "أبو يزيد البسطامي – كما يروي ابن عربي – يشير عن نفسه أنه قطب الوقت، فقيل له يوماً عن بعض الرجال أنه يقال فيه أنه قطب الوقت. فقال: الولاة كثيرون وأمير المؤمنين واحد"[1]. فكل الأولياء أمراء عند الملك أو الخليفة أبي يزيد؟

[1] ـ ص٤٩٣ ج٤ بـ٥٦٠ الفتوحات المكية

أما الشيخ سهل التستري فمنذ صغره وقبل أن تعلم تنظيف دبره للوضوء كان أعظم من الأولياء كلهم، وليس في وسعك إلا تصديق ما زعم إن كنت صوفياً! فهو القائل: "أشهدني الله تعالى ما في العلا وأنا ابن ست سنين، ونظرت في اللوح المحفوظ وأنا ابن ثمان سنين، وفككت طلسم السماء وأنا ابن تسع سنين، ورأيت في السبع المثاني حرفاً معجماً حار فيه الجن والإنس ففهمته، وحركت ما سكن وسكَّنت ما تحرك وأنا ابن أربع عشر سنة"[1] فهو الأعظم من بين الأولياء في معارفه وخوارقه مذ كان صغيراً، وما بالك وقد أصبح أعظم قدراً مما كان عليه وها هو يقول: "أنا حجة الله على الخلق وأنا حجة على أولياء زماني"[2]. فأولياء زمانه وكل الخلق هم دونه مرتبة، وهل أعظم ممن أصبحت طريقته ميزاناً يوزن بها كل العارفين مؤمنهم وفاسقهم وكافرهم؟!

ولكن هل لهذه المزاعم أن تقارن بواحد من حملة العرش؟ فابن عربي يقول عن العرش: "وجعل أركانه متفاضلة في الرتبة فأنزلني في أفضلها وجعلني من جملة حملته. فإن الله وإن خلق ملائكة يحملون العرش فإن لهم من الصنف الإنساني أيضاً صوراً تحمل العرش الذي هو مستوى الرحماني أنا منهم- فجعلني رحيماً مطلقاً"[3]. وبهذه الرحمة أصبح إبليس

---

[1] - ص١٨٣ ج١ الطبقات الكبرى
[2] - ص٧٨ ج١ نفسه
[3] - ص٤٣١ ج٣ بـ٣٧١ الفتوحات المكية

عنده من السعداء وأهل النعيم! ولكن على رسلك يا ابن عربي حتى لو كنت غوثاً أو قطباً أو ساعياً للحقيقة لتسمع ما يقوله النابلسي في ديوان الحقائق حيث يقول:

"وأنـــا لأطيـــار الحقيقـــة مُخـــرس وأنـــا الإمـــام بهـــا لكـــل إمـــام
والعـــارفون رعيتـــي فـــي قبضـــتي والغـوث والأقطـاب مـن خـدامي" [1]

فالعارفين من رعايا الرجل وليس هذا فحسب وإنما الغوث والأقطاب من خدامه، إنه الملك ولا منازع له في ملكه أو فيما يملك.

أما طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني هي الأعظم برأي نفسه طبعاً، فطريقته قد درست كل طريقة قبلها وهو القائل:

"أفلـــت شـــموس الأولـــين وشمســـنا أبـداً علـى فلـك العلـي لا تغـرب" [2]

فطريقته هي الوحيدة التي على الحق من بين الطرق الصوفية كلها، ولذلك قال: "فاسمعوا مني واقبلوا قولي فما على وجه الأرض من يتكلم على النص على حالة غيري. تعالوا إلي أنا محك أنا صاحب الكورة ودار الضرب"[3]، "وقفوا بين يدي على أقدام الإفلاس من عقولكم

---

[1] - ص١٦٤ ــ ١ ــ ١٩٧٩ التراث العربي
[2] - ص٤٦١ قلادة الجواهر
[3] - ص١٥٢ الفتح الرباني

وعلومكم"[1]. وليس هذا بالكثير لمن كان حاملاً لهموم الله وهموم الدنيا والآخرة "فأثقال الدنيا – كما يقول – على رأسي وأثقال الآخرة على قلبي وأثقال الحق عز وجل على سري"[2]، "وأيما امرئ مسلم عبر على باب مدرستي خفف الله عنه العذاب يوم القيامة"[3]، "ادن مني فإنك ترى في نفسك ما لا تراه مع البعد عني، إن كان لك حاجة في دينك فعليك بي-. فإني واقف على باب الآخرة"[4]، "ومن خرج من بين يدي إلى النار لا رحمه الله"[5]، "**حُج إلي أولاً ثم حج إلى البيت ثانية أنا باب الكعبة**"[6]، "وما أنطق إلا بالحق من الحق"[7]، "**أنا مسجد لصلاتك** ولإزالة نجاستك وأوساخك"[8]، "فإن تبتم وقبلتم ما أقول لكم وصبرتم على خشونة كلامي، كنت عليكم برداً وسلاماً"[9]، "**فإني داحض المنافقين وخبرة العارفين**"[10]. فلا عارف قبلي ولا بعدي فقد "أخرجني القدر إليكم، كنت في المطامير أخرجني وأقعدني على الكرسي"[11]، "ولولا الصبر لما رأيتموني

---

[1] - ص١٤٤ نفسه
[2] - ص١٤٢ نفسه
[3] - ص٤ نفسه
[4] - ص٣٦ نفسه
[5] - ص٣٣٥ نفسه
[6] - ص١٨٠ نفسه
[7] - ص٢٠٠ نفسه
[8] - ص٢٤٥ نفسه
[9] - ص٢٤٥ نفسه
[10] - ص٢٣٠ نفسه
[11] - ص٢٥٤ نفسه

بينكم"[١]، "فسبحان من أقدرني على مقاساة الخلق، كلما رمت الطيران جاء مقص القدر وقص جناحي"[٢]، واعلموا أن "علامة نفاق المنافق في هذا الزمان أن لا يدخل عندي ولا يسلِّم عليَّ إذا لقيني"[٣]، "فمن ليس له إيمان يهرب مني"[٤]، "فإني نائب عن الرسول وعمن أرسله"[٥].

ولكن إن اتهمته بالجنون أو إن ذكَّرته بجنونه الذي كان عليه كما يقول أصحابه فسوف تراه يقول: نعم لقد كنت مجنوناً، ولكن اعلم أني "كنت أتجانن وأتخارس وأتعاجم"[٦] وما أنا بالمجنون على الحقيقة.

ومن أين للجيلاني كل تلك المزاعم إن قورنت بهمة الرفاعي القائل:

"لي همة بعضها تعلو على الهمم ... ولي هوى قبل خلق الله والقلم
أنا الرفاعي طبولي في السما ضربت ... والأرض في قبضتي ***والأولياء خدمي***
كل المشايخ يأتوا باب زاويتي ... وفوق هاماتهم حاز العلا علمي
ولي لواء على الكونين منتشر ... وكل أهل العلا ما أنكروا هممي"[٧]
"وتوجني تاجاً من العز أخضرا ... وقد كان إتحافي به عن يد الخضر
ونادى لسان الحال إذاك قائلاً ... أنا القطب خدامي وعصر الورى عصري
وكل بني الدنيا وحقي رعيتي ... وجحفل أهل الله منتظراً أمري

---

[١]- ص١٥ نفسه
[٢] - ص٥٠ نفسه
[٣] - ص٢٧٦ نفسه
[٤] - ص٢٧٨ نفسه
[٥] - ص٢٩٤ نفسه
[٦] - ص٢٥٤ نفسه
[٧] - ص٢٣٣ قلادة الجواهر

فــلا مرشــد إلا ومــن خمرتـــي ســقى ولا عـــارف إلا وأغــرق فـــي بحـــري
فــإن عــدت الأقطــاب أدعـــى كبيــرهم وإن عــدت الأشــياخ فــي بــدئهم ذكــري
ســلاطين أهــل الحــال أطفــال مجلســي ويرعب مني السبع فـي شـطحة البـر" [1]

بل إن تلميذه محمد بهاء الدين الرواس يقول أيضاً:

"وأنـــا الســـيد المعلــى جلالـــي ســار جـيش الشـيوخ حـول ركـابي
قلمـــي آمـــر وحكمـــي جـــاري أذعـن الـدهر طائعـاً لكتـابي" [2]

وطريقة الرفاعية برأي أصحابها هي أفضل طرق الصوفية على الإطلاق:

"والأوليـــاء وإن جلّـــت مـــراتبهم لاذ الأكـابر مـنهم فـي أصـاغرنا
وكـــل أعـــلام أهـــل الله إن نشـــرت تطوى مع البسط في مجلى أشـائرنا
كبــار أهــل الوحــا مــن كــل طائفــة مـا بـين أعتابنـا أو فـي دوائرنـا" [3]
"أنـا صـخرة الـوادي إذا مـا زوحمـت فــإذا نطقــتُ فــإنني الجــوزاء" [4]

أما الشيخ ابراهيم الدسوقي فيقول صارخاً: دعكم من الكذب واسمعوا القصة كاملة، فقد "كنت أنا وأولياء الله تعالى أشياخاً في الأزل

---

[1] - ص٢٢٥ نفسه
[2] - ص٣٩٦ نفسه
[3] - ص٣٤٨ أشرف الوسائل
[4] - ص٣٦٦ نفسه

بين يدي قديم الأزل وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الله عز وجل خلقني من نور رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرني أن أخلع على جميع الأولياء بيدي، فخلعت عليهم بيدي. وقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا ابراهيم أنت نقيب عليهم"[١]، "فأنا موسى عليه السلام في مناجاته، أنا علي رضي الله عنه في حملاته، أنا كل ولي في الأرض خلعته بيدي، ألبس منهم من شئت، أنا في السماء شاهدت ربي وعلى الكرسي خاطبته، أنا بيدي أبواب النار غلقتها"[٢]. ثم يقول:

"وفي أرض صين الصين والشرق كلها — لأقصى بلاد الله صحَّت ولايتي
أنا الحرف لا أقرأ لكل مناظر — وكل الورى من أمر ربي رعيتي
أنا ذلك القطب المبارك أمره — فإن مدار الكل من حول ذروتي
أنا شمس إشراق العقول ولم أفل — ولا غبت إلا عن قلوب عمية"[٣]

وابن قضيب البان هو الآخر ممن جعل الأولياء من جملة خدمه قائلاً:

"وأمَّرني على الأقطاب حتى — سرى أمري بهم في كل شان"[٤]

---

[١] - ص١٨١ ج١ الطبقات الكبرى
[٢] - ص١٨١ نفسه
[٣] - ص١٨٢ نفسه
[٤] - ص١٥٣ الإنسان الكامل في الإسلام

أما عبد الكريم الجيلاني فيقول:

"قطبي يدور على رحى فلل تدور به الغرائب"[1]

ولكني لا أراه أعظم شأنا ممن أصبح لا معنى للوجود إلا به، والشاذلي يمتَّن على مريديه تواضعاً حيث يقول:

*"أنا معنى الوجود أصلاً وفصلا من رآني **فساجد لبهائي***
*أي نور لأ **هله** مستبين أشهدوني فقد كشفت غطائي"*[2]

ومريده ابن عجيبة جعل لأصحاب الطريقة الشاذلية رتبة خواص الخواص التي انفردوا بها دون غيرهم من أصحاب الطرق الصوفية الأخرى. وبالمقابل نرى أن المريد أيضاً لا يتوانى إذا ما أصبح شيخاً أن يتعالى على شيخه رافضاً تعاليمه، فالشيخ علي ولده يروي عن والده قائلاً: "كان يقول سيدي ووالدي صاحب الختم الأعظم: **فالشاذلي وجميع الأولياء** من جنود مملكته فهو يحكم ولا يحكم عليه من سائر الدوائر، فلا يقال لنا لم لا تقرءون حزب الشاذلي لأنكم من أتباعه"[3]. فوالده ذو

---

[1] - ص٢٥ الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي
[2] - ص٢٣٢ لطائف المنن
[3] - ص٣١ ج٢ الطبقات الكبرى

الطريقة الشاذلية لم يعد قادراً على احتمال بقائه محكوماً بأحزاب شيخه الشاذلي!

وسيدي يحيى على حد تعبير الشعراني جعل من نفسه أو من طريقته هو الآخر ميزاناً للأولياء حيث يقول:

"ألم تعلم بأني صيرفي ***أحك الأولياء على محكي"*** [1]

أما الشيخ عبد الرحمن الطفسونجي فيقول: **"أنا بين الأولياء كالكركي بين الطيور أطولهم عنقاً"**[2]. وهل للشيخ يحيى الآنف الذكر وأمثاله أن يزنوا من هو أعلى منهم رتبة؟!

ولنستمع أخيراً إلى مزاعم كل من الشيخين ابن الفارض والرفاعي، وقد جمع بينهما الموضوع الواحد وللصوفي شأنه إن أراد تصديقهما، يقول الرفاعي:

"رفعت رايتي على العشاق — واقتدى بي جميع تلك الرفاق
سرتُ في الحب سيرة لم يسرها — في الورى عاشق من العشاق
فحديثي يجول في كل أرض — وطبولي تدق في الآفاق
مُثِّل العاشقون فوق بساطي — في مقام الهوى وتحت الرواق" [3]

---

[1] - ص٣ ج٢ الطبقات الكبرى
[2] - ص١٤٦ ج١ نفسه
[3] - ص٢٤٨ قلادة الجواهر

أما ابن الفارض وكأنه يقول: كفاك نقصاً وكذباً بالله عليك!

"ومـن لـم يـرث عنــي الكمـال فنـاقص   علــى عقبيــه نــاكس فــي العقوبــة" [١]

أم أنك لا تعلم أنني قد:

"نشــرت فــي موكــب العشــاق أعلامــي   حتــى وجـدتُ ملـوك العشـق خـدامي" [٢]

"فأهل الهوى جندي وحكمي على الكل"[٣]

واعلم بأني "ما تركتُ مقاماً قط قدامي"[٤]، "وبي يقتدي في الحب كل إمام"[٥].

"فكـــل فتـــى يهـــوى فـــإني إمامـــه   وإنـي بريء مـن فتـى سـامع العـذل" [٦]

فلا تكن أيها الرفاعي من العذال وأهل الحسد ولا من الزاعمين في هذا الذي أنا أهله وصاحبه.

---

[١] - ص٣٧٥ الصوفية في نظر الإسلام
[٢] - ص٣٠٤ الصوفية في شعر ابن الفارض
[٣] - ص٢١٦ نفسه
[٤] - ص٣٥٧ نفسه
[٥] - ص٢٦٢ نفسه
[٦] - ص٢١٧ نفسه

ولم يكتف أولياء التصوف بالمزاعم معرفة كانت أو خوارق في صراعهم فيما بينهم وحسب بل انطلقوا إلى تحقير الخلق أجمعين، والشيخ عبد القادر الجيلاني يقول: إن العارف لا يسمى عارفاً حتى يكون "الخلق تحت قدمه"[١]، حتى أن الأولياء أنفسهم لا نجاة لهم من شر قدمه هذه، حيث يقول: "قدمي هذه على عنق كل ولي لله تعالى"[٢]، وإن هذه الكلمة أيضاً وقعت بوجه آخر من الشيخ أبي الحسن الشاذلي قدس سره كما هي مروية عنه من أهل خرقته فإنهم يقولون أنه قال: قدمي هذه على جبهة كل ولي لله. وتبع هذا الحذو الشيخ أحمد التيجاني المغربي صاحب الطريقة التيجانية المشهورة الآن كما هو منقول عنه من أهل طريقته وخرقته"[٣] حيث قال في "الإفادة المحمدية": قدماي هاتان على رقبة كل ولي لله تعالى من أول إنشاء العالم إلى النفخ في الصور"[٤].

فأولياء التصوف لا كالأنبياء "تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى" فهم في صراع دائم وحقد مرير على بعضهم البعض، ولكن إن كان عداء الأولياء كما يقول الخبر عداء لله سبحانه فهل كل الذين زعموا ما زعموا من تحقير للأولياء وإهانتهم هم من أعداء الله؟ إلا أن الصوفي وإن تململ بما خرج عن الأولياء من ريح كريه نراه ساعياً لتنزيههم اعتماداً على فكرة

١ - ص٣٦١ الفتح الرباني
٢ - ص١١٢ قلادة الجواهر، ص٢٤٠ أشرف الوسائل
٣ - ص١١٤ قلادة الجواهر
٤ - ص٢١٤ التصوف بين الحق والخلق

الظاهر والباطن من جهة، واعتماداً على تبرير ما سموه بالشطح من جهة أخرى، عوضاً عن ربط صراعهم بالرزق وحيازة السلطان أو الجاه وإلى ما هنالك.

ومن منطق التنزيه والعصمة يقول الرواس مثلاً: "فليس لنا إلا التأويل لهذه الألفاظ أدباً مع القوم"[١]. فاحتراماً للأولياء إذن يجب تأويل شتائمهم، إلا أن التأويل كما هو معلوم لا يجوز إلا لكلام من معصوم وإلا فلا. فالشتائم ستبقى شتائم في حقيقتها وكما هي.

أما ابن عربي فيرى أن مزاعم الأولياء بعضهم على بعض لا علاقة لها بالمنامات واختلاف المراتب وإنما هي من حكم المحل، وصاحب المحل برأيه يحق له وضع قدمه على من وجده في محله، أو من حقه تجهيله وفي ذلك يقول: "وقد اتفق لعارفين من أهل زماننا. فقال لي أبو البدر: دخلت على الواحد بميافارقين فذكرت له شأن العارف الذي ببغداد فقال لي: إنه من جملة من يمضي أمري فيه. قال: فجئت إلى العارف الآخر ببغداد فقلت له: إني أدخلت بميافارقين على الوكّاف فذكرت له شأنك فقال لي: إني رأيته في جملة من يمضي أمري فيه من خولي. فقال: كذا يزعم. والله لقد رأيته يحمل الغاشية بين يدي. قال أبو البدر: فحرت بينهما وكلاهما صادقان عندي فأزل عني هذه الغمة. فقلت له رحمه الله:

---

١ - ص١١٤ قلادة الجواهر

كل واحد منهما صدق وأن كل واحد منهما رأى صاحبه في سلطانه وفي محله والحكم لصاحب المحل فذلك كان حكم المحل لا حكم مراتبهما"[1].

أي: إن صاحب المحل أو "المضافة" له في العرف الصوفي إهانة ضيفه وتحقير شأنه إن وجده في محله، وهذا من حقه لأن صاحب المحل أولى بالإمامة من الضيف، ولهذا فلن يسمح لأحدهم في محله بالزعم أنه أعلى منه مقاماً، على الأقل حفاظاً على سمعته بين مريديه، أو حتى لا يفقد رزقه بفقدهم إن التحقوا بصاحب المقام الأعلى المزعوم.

ومن أجل تبرير الشذوذ الخلقي لأولياء التصوف باللاوعي أو الشطح والسكر وإلى ما هنالك، يقول ابن عربي أيضاً: "ومنهم من تغلب عليه الشطحات لتحققه بالحق كعبد القادر، فيظهر العلو على أمثاله وأشكاله وعلى من هم أعلى منه في مقامه. **وهذا عندهم في الطريق سوء أدب** بالنظر إلى المحفوظ فيه، وأما الذي يشطح بالله على الله فذلك أكثر أدب مع الله من الذي يشطح على أمثاله- وكان عبد القادر الجيلي رحمه الله ممن يشطح على الأولياء والأنبياء بصورة حق في حاله فكان غير معصوم اللسان"[2]. فأن يشطح الصوفي إذن أو يزعم المزاعم أو يسيء أدبه مع الله عز وجل والرسول صلى الله عليه وسلم، أهون برأيه ممن يزعم المزاعم على من هم من أُقرانه أو على من هم أعلى منه رتبة، لأن

---

[1] - ص٤٤ ج٤ بـ٤٣١ الفتوحات المكية

[2] - ص٥٦٠ – ٥٦١ ج٣ بـ٣٩٧ الفتوحات المكية

الله هو الشاطح نفسه ولا يُسأل عما يفعل، وسبحان ربك رب العزة عما يصفون.

وعلى كل حال فإن ابن عربي قد اتهم أصحاب تلك المزاعم بسوء الأدب وباللسان اللامعصوم، واعتبار أقوالهم من فلتات اللسان، والسهروردي أيضاً قد اتهمهم بالإعجاب والغرور والسكر والجهل باستراق النفس وإلى ما هنالك من ألفاظ الشتائم والخذلان، قائلاً: "لقد نقل عن جمع من الكبار كلمات مؤذنة بالإعجاب، وكل ما نقل من ذلك القبيل من المشايخ لبقايا السكر عندهم وانحصارهم في مضيق سكر الحال- لأن النفس إذا استرقت السمع عند ظهور الوارد على القلب- فيكون من ذلك كلمات مؤذنة بالعجب كقول بعضهم: منْ تحت خضراء السماء مثلي؟ وقول بعضهم: قدمي على رقبة جميع الأولياء!"[1]. فمزاعم أولياء الله على بعضهم ناتجة برأي السهروردي من اختلاط ما كان عن نفوسهم الأمارة بالسوء مع الواردات التي تنهال عليهم من الحق، فانطلق لسانهم للتعبير عن إعجابهم بأنفسهم. ولكن كيف يسعنا تصديق معارف الأولياء ولدنياتهم طالما أنباءهم بهذا الاختلاف والالتباس المشين خاصة وهم الزاعمون لامتحان أخبار النبوة بما لديهم من هذا الكشف والعيان الذي اختلط فيه الحابل بالنابل؟!

---

[1] - ص١٣٥ عوارف المعارف

أما السذج من المتصوفة فقد استخدموا مصطلح "الحكمة" للتأويل أو لتبرير عدم التآلف بين القلوب الشتى للأولياء، فقد "سئل – أبو سعيد الخراز – رضي الله عنه عن سبب معاداة الفقراء – أي المتصوفة – وبغضهم لبعضهم بعضاً، مع أنه لا رياسة عندهم. فقال: إنما قدَّر الله عليهم ذلك غيرة منه عليهم أن يسكن بعضهم إلى بعض"[1] فغيرته سبحانه من أن يرى المتصوفة على تواؤم وتآلف قدّر عليهم أن يكونوا في عداء وكره دائمين فعوضاً من ربط الأنانية والحقد بقلوب أولياء التصوف المريضة ربطوها بالله الغني العزيز الذي زرع الكره والبغضاء في قلوب أوليائه غيرة عليهم!!

أما شيخ السذج وأعني به الشعراني، فقد تبرع للقوم بحكاية على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقول فيها: "وصعد يوماً إلى المنبر فقال: الحمد لله الذي صيرني ليس فوقي أحد. فقيل له: ما حملك على ما تقول؟ فقال: إظهاراً للشكر ثم نزل."[2]. أي: من أجل شكر الأولياء لله كان تلاعنهم!!

ولكن هل انتهى الصراع الصوفي عند المزاعم أو المزاعم اللاواعية كما يقولون فحسب؟ لا، لا، فصراعهم واع ولهم فيهم الحجج وما من أحد منهم إلا وقد جهَّل الآخرين بكل ما لديه من أساليب وحيل،

---

[1] - ص٩٣ ج١ الطبقات الكبرى
[2] - ص١٨ ج١ نفسه

حتى أنه ما من مرحلة في تاريخهم المديد، إلا وتجد المعاصرين منهم قد انتقصوا أسلافهم بأغلظ التهم، فالسراج المتوفى سنة ٣٧٨ هـ، صنف مخطئي الصوفية في "اللمع" على ثلاث طبقات "فطبقة منهم غلطوا في الأصول- وطبقة ثانية منهم غلطوا في الفروع"[١]، "والطبقة الثالثة كان غلطهم- زلة وهفوة"[٢]. وبعد السراج أتى السلمي المتوفى سنة ٤١٢ هـ، ليكتب رسالة عنوانها "رسالة في غلطات الصوفية"[٣]، ومن ثم جاء الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ، ليكتب "المنقذ من الضلال"[٤] الذي استعرض فيه بعض غلطات الصوفية أيضاً، وبعده جاء أبو حفص عمر بن محمد السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢ هـ، ليشن الهجوم على تلك الأخطاء نفسها التي لم تزل تتكرر واستمرت أمورهم كما هي ولما سئل جعفر الخواص: "هل عندك من كتب علي بن محمد الترمذي شيء؟ فقال: ما عددته من الصوفية"[٥]. فالترمذي برأي الخواص دعي على التصوف وما هو من أولياء الله الصالحين إن لم يكن من أولياء الشيطان. وعندما أراد الرفاعي تحجيم الشيخ منصور مقارنة به قال: "أعطيتُ خصلتين لم يعطهما الشيخ منصور. أعطيت الحكمة ولم يعطها وأنا معشوق "من الله"

[١] - ص٨٣ تاريخ التصوف الإسلامي
[٢] - ص٨٤ نفسه
[٣] - ص٩٢ نفسه
[٤] - ص٩٢ نفسه
[٥] - ص١١٨ ج١ الطبقات الكبرى

وهو كان عاشقاً له، والعاشق متعوب والمعشوق مدلل"[1]، والشيخ محمد السروي يشهد بأن الطريقة الشاذلية خارجة عن توحيد "لا إله إلا الله" فقد كان يكره للمريد قراءة حزب الشاذلية وأحزاب غيرهم ويقول: ما رأينا أحد قط وصل إلى الله بمجرد قراءة الأحزاب والأوراد، وكان يقول: نحن ما نعرف إلا "لا إله إلا الله" بعزم وهمة"[2]، والشيخ محمد العجمي يقسم بأغلظ الأيمان على جهل الجنيد المسمى سيد الطائفة قائلاً: "والله لو أدرك الجنيد رضي الله عنه سيدي أبا العباس الغمري رضي الله عنه لأخذ عنه الطريق"[3]، والشيخ علي بن شهاب يرى أن الطريقة الدسوقية أو البراهماتية خارجة على الكتاب والسنة وإن أكلوا النيران وخرقوا أجسامهم بالسكاكين، فقد "كان رضي الله عنه لا يمكِّن أحداً من الفقراء البرهماتية يفعل شيئاً في بلده مما يفعلونه في غيرها من أكل النار ودخولها وجر السيف على اللسان وعلى الكف، ويقول: إن كنتم برهماتية فأتوا لنا ببرهان على ذلك من الكتاب والسنة. وكذلك وقع له مع فقراء الأحمدية"[4]، أما الشيخ شمس الدين الحنفي فقد "ذكروا يوماً عنده سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنه فقال: لو حضر عندنا عبد القادر هنا

---

[1] - ص١٩١ قلادة الجواهر
[2] - ص١٢٧ ج٢ الطبقات الكبرى
[3] - ص١٢١ نفسه
[4] - ص١١٣ نفسه

لكان تأدب معنا"[1]، "وكان يقول: لو كان عمر بن الفارض في زماننا ما وسعه إلا الوقوف ببابنا"[2]، "والجنيد رضي الله عنه يقول: أدركت سبعين عارفاً كلهم كانوا يعبدون الله تعالى على ظن ووهم، حتى أخي أبا يزيد لو أدرك صبياً من صبياننا لأسلم على يديه"[3]. فالبسطامي حسب رأي الجنيد ليس من المسلمين رغم ماله من كرامات ومعارف وإلى ما هنالك. وليس هذا رأيه فحسب فالشبلي أيضاً سئل عن أبي يزيد البسطامي وما حكي عنه، فقال: "لو كان أبو يزيد هنا لأسلم على يد بعض صبياننا"[4]، أما ابن عربي فقد اتهم الغزالي بجرأته على ذات الله واتهمه بسوء الأدب والعقيدة قائلاً "وبالجملة فقد أساء الأدب"[5]. وليس هذا فحسب فالغزالي برأيه من العريقين في الجهل، وفي ذلك يقول: "وجاء أبو حامد وأمثاله بأقصى غايات الجهل وبأبلغ مناقضة لما أعلمنا الله به"[6]، فقد "نهانا سبحانه عن التفكير في ذاته فعصاه- بعض الصوفية كأبي حامد وغيره في مظنونه وغير مظنونه فتعدوا حدود الله"[7]، ومن جهليات الغزالي كما يروي ابن عربي قوله: "كان الله ولا شيء معه، ولم يرد عن المخبر عن الله "أي عن الرسول صلى الله عليه وسلم"- قولهم: وهو الآن على ما عليه كان.

---

[1] - ص٩٩ نفسه
[2] - ص٩٦ نفسه
[3] - ص١٦ نفسه
[4] - ص٣٩١ دراسات في التصوف
[5] - ص٣٨٩ ج٢ بـ١٩٦ الفتوحات المكية
[6] - ص٤٦٧ ج٣ بـ٣٧٤ نفسه
[7] - ص١٠٦ ج٤ بـ٤٧٣ نفسه

فإنه تكذيب للخبر "أي للنبي" فإنه الآن للخبر الإلهي كل يوم هو في شأن- . فكيف يصح قولهم: وهو الآن على ما عليه كان"[1]. وهل بعد تكذيب الله ورسوله إلا الكفر الصريح؟ فالغزالي برأي ابن عربي من الكافرين الذين تعدوا حدود الله تعالى!

وعند حديث ابن عربي عن رابعة العدوية قال: "فيا ليتها سلَّمت حين سمعت القارئ يقرأ: إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون – عوضاً عن قولها – مساكين أهل الجنة في شغل هم وأزواجهم. يا مسكينة! لو اشتغلت هذه القائلة بالله ما قالت هذه المقالة"[2]. فهي برأيه من أولياء الشيطان لا من أهل الله وإلا لسلمت وآمنت بما يقوله القرآن دونما اعتراض واستهزاء.

أما شيخ المحققين ابن سبعين فيقول: "وأما الغزالي فلسان دون بيان، وصوت دون كلام، وتخليط يجمع الأضداد، وحيرة تقطع الأكباد، فمرة صوفي وأخرى فيلسوف وثالثة أشعري ورابعة فقيه وخامسة محيَّر، وإدراكه في العلوم القديمة أضعف من خيط العنكبوت، وفي التصوف كذلك، لأنه دخل الطريق بالاضطرار الذي دعاه لذلك من عدم الإدراك"[3]، وعند حديثه عن طريقة ابن عربي في التصوف وصفها:

---

[1] - ص٤٢٥ ج٤ بـ٥٥٩ نفسه
[2] - ص٧٤٣ ج١ بـ٧٢ نفسه
[3] - ص١٤٤ بد العارف

"بأنها مخموجة"[1] أي عفنة، وكذلك استعاذ من ابن مسرة وابن قسي وابن برجان"[2] ومن السهروردي المقتول"[3] استعاذته من الشيطان، ولم يكن "يرى لابن العريف أو الغزالي فضلاً في التصوف"[4] ولا لابن عربي برأيه ذلك الفضل"[5]، بل وقال: "وإن زعم المسافر أنه رفاعي أو كذا أو كذا، فلا تسلِّم له!"[6]، "فالوقت والجهاد سبعينية لا غير"[7]، "والوصول إلى الله لا يكون إلا عن طريق ابن سبعين المحقق"[8].

الشيخ أحمد الحرار أيضاً اتهم ابن عربي بالعجز ونقص الحال فقد كان ذات مرة في سياحة مع جماعة صوفية بينهم محيي الدين ابن عربي وإذ مرَّ عليهم الخضر وسلم عليهم فقال بعدها: "فلم يستطع أحد منهم رد السلام عليه سواي"[9] بما فيهم ابن عربي نفسه، وهل من له الاستطاعة كالعاجز عن الكلام في حضرة الخضر عليه السلام؟!

---

[1] - ص٥٤ مدخل إلى التصوف الإسلامي
[2] - ص٧٦ ابن سبعين وفلسفته الصوفية
[3] - ص٧٩ نفسه
[4] - ص٧٨ نفسه
[5] - ص٨١ نفسه
[6] - ص٤٢٠ نفسه
[7] - ص٤٢٤ نفسه
[8] - ص٤٢٣ نفسه
[9] - ص٣٢ سير الأولياء

ـ صراع الأولياء على المشيخة:

إن للمشيخة في التصوف مقام عظيم وسلطان مهيب، فالمشايخ كما يقول عبد القادر الجيلاني: "يصيِّرهم الله من شيوخ عباده وسلاطينهم، يستنيبهم في الأرض، يستخلفهم فيها ويجعلهم من مفرديه يعلمهم من علمه وينطقهم بحكمه ويكرمهم بكرامته- ويجعل تاج المعرفة على رأس إيمانهم، **القدر يخدمهم والإنس والجن والملائكة قيام بين أيديهم، التواقيع تأتي إلى قلوبهم وأسرارهم كل واحد منهم ملك في نفسه قاعد على سرير سدة ملكته ويبث جنده في الأرض لإصلاح الخلق**"[1]. فإذا ما كانت المشيخة حسب هذا الحلم اليقظوي سلطاناً على البشر والقدر والجن والإنس فلا بد أن تكون موضوعاً هاماً من موضوعات الصراع الدائر بين الأولياء.

بعض الأولياء وفق منهجهم المعرفي يزعمون بأن المشيخة آتية إليهم بأمر إلهي أو بأمر نبوي، ولكن "العارفين من المحققين – كما يقول الشعراني – اتفقوا على أن الإذن الخاص من النبي صلى الله عليه وسلم لا يكون إلا للقطب- فمن ادعى الإذن الخاص فكأنه ادعى أنه قطب الغوث"[2]. وتلك كبيرة! بل ومن الواجب أيضاً لجم من يزعم المشيخة بأمر إلهي، ومن زعم أنه قد جاءنا "الإرشاد الخلق بخاطر من قبل الحق،

---

[1] - ص٢٦٧ الفتح الرباني

[2] - ص٤٤ – ٤٥ الأنوار القدسية

فهذا لا يصح-. لأن خاطر الحق لا يكون فيه أمر ولا نهي-. فإن قال أمرني الله تعالى من غير واسطة، قلنا هذا أعظم-. ولا قائل به"[1] إلا بجهله، وما هذه الخواطر بالنتيجة إلا من أحاديث النفس التي انشغلت بما ترغب فيه حتى ظننت "أنه خاطر من قبل الحق-. وإنما ذلك من قِبل النفس الطالبة لصفة الألوهية على الخلق"[2].

فمن أجل جلوس الصوفي على عرش المشيخة يزعم كذباً أن الله أو الرسول أمره بولاية هذا المنصب، وهذا كله كما يقول الشعراني لا يصح، حيث لا مشيخة بزعمه إلا عن شيخ، "فالأولياء إنما تبشر بالأولياء"[3] ولا خروج عن سلطانهم ولو زعمت ما زعمت، ولا سبيل إلى المشيخة إلا برضا الشيخ، حتى أن الشيخ أبا السعود مثلاً أخرج "ابن سيدي مدين وهو ابن خمس سنين فأجلسه على السجادة"[4] إيذاناً بمشيخته. ولكن هل من صمت لمن يرى المشيخة من حقه؟ لا أظن ذلك "فسيدي أحمد البدوي قد شرب ماء بطيخة – ذات مرة – وتقيأه ثانياً فيها، فأخذه سيدي محمد-. وشربه. فقال له سيدي أحمد: أنت قمر دولة أصحابي – وهذه بشارة إلى خلافته بالمشيخة – فسمع بذلك سيدي عبد العال والجماعة فخرجوا

---

[1] - ص٤٧ – ٤٨ نفسه
[2] - ص٥٠ نفسه
[3] - ص٦٠ الأنوار القدسية
[4] - ص١٠٤ ج٢ الطبقات الكبرى

لمعارضته وقتله- فقام بنفيا إلى أن مات"[1]. فالمشيخة إذن قد تنتقل من الشيخ إلى المريد عن طريق شربه قيء الشيخ، وقد يسعى الطامح للمشيخة لقتل المنافسين له بل وقد يسعى إلى قتل شيخه إن رآه عقبة في وصوله للمشيخة، فقد "طلب شخص من مريدي أبي الحجاج الأقصري قتل شيخه مرات فلم يقدر. وكان يعتقد أنه ينال مقامه بقتله حين رآه محجوباً بشيخه، فأخبر الشيخ بذلك فقال: يا ولدي هذا من الشيطان، إذا قتلت شيخك غضب الله عليك فكيف يعطيك مقامه"[2].

الصوفي يحتج من أجل انتزاع المشيخة من أقرانه بالمميزات الخارقة التي يتمتع بها، ولنستمع إلى هذا الحوار بين الشيخ محمد والشيخ علي في صراعهما على المشيخة: "قال سيدي علي – متفاخراً – ما تقول في رجل رحى الوجود بيده يدوِّرها كيف شاء. فقال له سيدي محمد رضي الله عنه: فما تقول فيمن يضع يده عليها فيمنعها أن تدور؟! فقال له سيدي علي: والله كنا نتركها – أي المشيخة – لك ونذهب عنها. فقال سيدي محمد رضي الله عنه لجماعة سيدي علي: ودِّعوا صاحبكم فإنه ينتقل قريباً إلى الله تعالى، فكان الأمر كما قال. وسمع سيدي محمد رضي الله عنه هاتفاً يقول: "بالليل يا محمد وليناك ما كان بيد علي بن وفا زيادة على ما

[1] - ص١٨٦ ج١ نفسه
[2] - ص١٥٨ ج١ نفسه

بيدك. فعلمت أن ذلك لا يكون إلا بعد موته"[1]. وليس غريباً أن يكون الشيخ محمد قد أقدم على قتل الشيخ علي ليلاً بالكرامة أو بالسحر الأسود أو بالتآمر وربما هو قصده من زعمه القدرة على إيقاف من بيده رحى الوجود أي الشيخ علي الذي استلم المشيخة منه على مريديه ظلماً وعدواناً.

وماذا عن صراع مشايخ الطرق؟ إن صراع الطرق الصوفية بعضها مع بعض مألوف الشراسة فليست المزاعم والتعالي بالقدرات الخارقة التي من الممكن تأويلها هي كل ما في جعبتهم من أسلحة الصراع، لا، ولا صراعهم يمكن أن يُضم إلى حظيرة الشكر، لا، ولا إلى الغيرة والحكمة الإلهية. فعندما يقدم الصوفي على قتل منافسه فلا تأويل عندها يعطيه العصمة إلا لمن لا عقل له، والطرق الصوفية تستخدم الخناجر أيضاً في صراعها مع بعض، فالشيخ أحمد السطيحة مثلاً "حضر مجلس سماع في ناحية دسوق، فطعنه فقير عجمي تحت بزه. فقال: طعنني العجمي ثم قال: يا رب خذ لي حقي. فأصبح العجمي مشنوقاً على حائط لا يدرون من شنقه"[2]. وبالطبع كان الانتقام موفقاً إلى حد أن أحداً لم يستطع التعرف على قاتله.

---

[1] - ص٩٠ ج٢ الطبقات الكبرى

[2] - ص١٤٧ ج٢ نفسه

وعندما أصبح الشيخ علي الخواص مسموع الكلمة عند السلطان "كان أصحاب النوبة بمصر عجماً فكانوا لم يزالوا يعارضونه ويعارضهم، فطعنوه بخنجر في مشعره ولم يزل به إلى أن مات"[1].

وليست الخناجر هي كل السلاح لديهم، فتجريد المعرفة من المغضوب عليهم أو الخصوم ظاهرة مألوفة لديهم، فالشيخ أحمد البدوي غضب مرة على الشيخ شمس الدين بن لبان، فسلب علمه وحاله حتى شفع فيه الشيخ ياقوت العرشي"[2]. وأحد أعدائه أيضاً وهو صاحب الإيوان العظيم بطندتا المسمى بوجه القمر كان ولياً عظيماً. وكان الخطباء بطندتا انتصروا له وعملوا له وقفاً وأنفقوا عليه أموالاً وبنوا لزاويته مئذنة عظيمة. فرفسها سيدي عبد العال – أحد مريدي الشيخ أحمد البدوي – رضي الله عنه فغارت إلى وقتنا هذا"[3]. ومن الواضح أن الصراع طالما ارتبط بوقف وزاوية فإنه صراع على موارد الرزق، فالمتصوفة الذين اعتمدوا على التسول والوقف والصدقات في كسب قوتهم، قد وزعوا الأحياء السكنية والمناطق والقرى بين الطرق تبعاً لنفوذ هذه الطريقة أو تلك ولكل طريقة سلطانها المطلق على المنطقة المخصصة لها. وها هو الشيخ حسن العراقي يقول: "فلما أردت الدخول إلى مصر منعوني من

---

[1] - ص١٥٠ ج٢ نفسه
[2] - ص٢٠ ج٢ نفسه
[3] - ص١٨٤ ج١ نفسه

ذلك، وكان المشار إليه فيها سيدي مدين المتبولي رضي الله عنه. فأرسل يقول لي: أقم في القرافة، فأقمت في قبة مهجورة عشر سنين تخدمني الدنيا في صورة عجوز تأتيني كل يوم برغيفين وإناء ماء فيه طعام فلا كلمتها ولا كلمتني قط. فبينما أنا ذات يوم جالس هنا إذ طلع عليَّ الدشطوطي فقال: انزل من هذا الكوم. فقلت: لا أنزل. فخرجت النفس مني ومنه فدعا عليَّ بالكساح فتكسحت ودعوت عليه بالعمى فعمي"[1].

فالكرامة إذن من أسلحة الصوفي في صراعه، وأية كرامة هذه التي تستخدم ضد الأولياء والمآذن لتعمل قتلاً وتخريباً وتشويهاً؟! إنها من سحره أو قوى نفسه كما قال التي حصلها بالرياضات، وبنفسه التي انزعجت أو تحركت كانت تلك الأفعال على الحقيقة. هذا إن سلَّمنا بصدق هذه الروايات!

الكرامة سلاح من أسلحة الصراع على المشيخة، فالشيخ محمد خير ابن أبو بكر الكبير الصيادي الرفاعي "اعتدى عليه شيخ المشايخ السعدية. فأقام عليه دعوى عند حاكم الوقت فامتنع الحاكم بعد أن سمع الدعوى عن الحكم بذلك وأمر أن ترفع لدى أهل الطريق خوفاً من سهام أهل التحقيق. فبرز شيخ السعدية وقال: أيها الوزير اسمع مني ما به أشير: أريد أن أضع بين يديك في رأس هذه القلعة علمين ونصيح عليهما نحن

[1] - ص١٣٩ – ١٤٠ ج٢ الطبقات الكبرى

الإثنين. فالذي يأتيه علمه فهو صاحب الطريقة المتبعة وخلافته ثابتة، والذي يُغلب يكون منفياً وتأخذ إجازته. فعرضوا القضية على الشيخ محمد خير الله فسكت وقال: توكلت على الله. فأحضروا العلمين بين يدي الوزير. فقال الشيخ السعدي: هيا انده عليه يأتك. فقال الشيخ محمد خير الله: أنا لا أكون متقدماً على من هو بمقدار والدي. بل أكون ثانياً. فاستنجد الشيخ السعدي وصاح بأعلى صوته أربعين صيحة على العلم فلم يأت إليه، بل يرون العلم وهو يتحرك. فلما استقر وفرغ من صيحاته تقدم الشيخ محمد خير الله المذكور وقال بعد أن رمق بطرفه إلى السماء وقد لبسه الحال: اللهم إن جبرائيل قال لخليلك إبراهيم وهو في النار: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا وأما إليه فحسبي من سؤالي علمه بحالي، فلم يلبثوا إلا والعلمين طارا إلى أن أتيا فوق رأسه فضجت لذلك أهل البلدة"[١]. والقصة على طولها إن نزعنا ما بها من زخرفة، إنما تمثل مباراة ما بين ساحرين، كما تشير إلى تدخل السلاطين في تنصيب المشايخ، وإلى ضرورة تعامل الطامحين للمشيخة مع السلطة.

إنه الصراع، والصراع المفتوح من أجل الرزق، ويحكى في سير القوم أن أحد الصالحين من رجال التصوف كان من المبغضين للعارف أبا مدين "فأردت – يقول ابن عربي – أن أعرف سبب كراهته في أبي

---

[١] - ص٣٧١ قلادة الجواهر

مدين مع قوله أن أبا مدين رجل صالح! فسألته. فقال: كنت معه ببجاية فجاءته ضحايا عيد الأضحى فقسمها على أصحابه وما أعطاني منها شيء. فهذا سبب كراهتي فيه"[1]. وإنه لسبب عند الصوفي لو تعلمون عظيم!

والحقد على أصحاب السمعة الأعظم، ليس أقل أهمية، فالتعلق بالسمعة كما يقول الشعراني يجعل صاحبه يكره كل من ارتفع شأنه عليه من أقرانه"[2] ويجعل المجردين منه ساعون إليه بكل سلاح ووسيلة. ولكن ما الذي بوسعنا القيام به لنصيحة القوم إن كانوا لا يقبلون النصح حتى من بعضهم بعضاً، ولذلك أسبابه الدفينة كما يرى الشعراني حيث يقول: "اعلم أن نصح الإخوان من المشايخ لبعضهم بعضاً قلَّ في هذا الزمان- وربما وقع لبعض القاصرين الخوف من أنه لو نصحه فتح عليه الآخر باب النصح، فيخرجان من المشيخة بزعمهما. فكل واحد يخاف أن يظن تلامذته به أنه لولا نقصه ما نصحه الآخر"[3].

فمشايخ التصوف لا يسمعون النصيحة ولا يتناصحون، وإنما يتلاعنون ويكره بعضهم بعضاً، لأن الله قدَّر أرزاقهم على مريديهم وعلى

---

[1] - ص٤٩٨ – ٤٩٩ ج٤ بـ٥٦٠ الفتوحات المكية
[2] - ص١٥ الأنوار القدسية
[3] - ص٣١ الأنوار القدسية

سمعتهم، وهو سبحانه الذي يوقع العداوة والبغضاء بين أوليائه غيرة عليهم!!

- الخاتمة:

إنه من خلال قراءتنا لأخلاق مشايخ التصوف في صراعهم مع البيئة وفيما بينهم، كان لنا ما يلي:

١. مشايخ التصوف غير مؤهلين لأن يكونوا قدوة خلقية لغيرهم.

٢. ومن أجل منافعهم الاقتصادية وأمراضهم النفسية، عطلوا العقل وكرسوا الجهل وجعلوا منه الفضيلة الأعظم.

٣. السادية قمة الأمراض في منهجهم التربوي، فلا لذة لهم أعظم من تعذيب وإيلام المريدون لهم، ولا مريد مرضي عنه إلا الذي يستعذب عذابهم ويستمرئ الذل والهوان في سبيل إرضائهم.

٤. تناقض لدنياتهم خير دليل على فساد منهجهم المعرفي المؤدي لفساد عقائدهم. ولو نظرنا على سبيل المثال إلى الأديان غير النبوية من هندوسية وزرادشتية وبوذية وأفلوطينية وغير ذلك كثير، لوجدنا أن كل هذه الأديان المتضاربة في العقائد وتصورها للإله، كلها قد اعتمدت الغنوص الذي معناه تحصيل المعرفة عن طريق الرياضات أو عن غير طريق العقل والمنهج العلمي، في صياغتهم لما اعتقدوه، فالغنوص منهج واحد لا بد يؤدي لتعدد النتائج بعدد الممارسين له، ولهذا كان التضارب والتلاعن بين أولياء التصوف حول ما كان لهم من تصورات متعددة عن الإله والملأ الأعلى وإلى ما هنالك.

- المراجع:

١. **القرآن الكريم.**

٢. **الإبريز:** أحمد المبارك، تحقيق محمد الشماع ج١ ط١ ١٩٨٤، ج٢ ط١ ١٩٨٦.

٣. **ابن سبعين وفلسفته الصوفية:** د. أبو الوفا التفتازاني، ط١ ١٩٧٣.

٤. **إحياء علوم الدين:** أبو حامد الغزالي.

٥. **أشرف الوسائل:** محمد الصيادي، تحقيق عبد الحكيم عبد الباسط ط١ ١٣٨٩.

٦. **الإنسان الكامل في الإسلام:** عبد الرحمن بدوي.

٧. **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل:** عبد الكريم الجيلاني، مطبعة حجازي، القاهرة ١٣٦٨ هـ.

٨. **الأنوار القدسية:** عبد الوهاب الشعراني، هامش الطبقات الكبرى.

٩. **إيقاظ الهمم:** أحمد بن عجيبة، ط١ ١٩٨٩.

١٠. **بد العارف:** عبد الحق ابن سبعين، تحقيق جورج كتورة ط١ ١٩٧٨.

١١. **تاريخ التصوف الإسلامي:** د. عبد الرحمن بدوي، ط١ ١٩٧٥.

١٢. **التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس:** عبد القادر عطا، ط١ ١٩٨٧.

١٣. **التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة:** ابراهيم هلال ١٩٧٥.

١٤. **التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق:** د. زكي مبارك، دار الجيل.

١٥. **التصوف بين الحق والخلق:** محمد فهر شقفة، ط٢ ١٩٧٠.

١٦. **التصوف في شعر ابن الفارض:** تحقيق حامد عبود، ط١ ١٩٨٨.

١٧. **تعريف الأحياء بفضل الإحياء:** مع إحياء علوم الدين للغزالي.

١٨. **تلبيس إبليس:** عبد الرحمن ابن الجوزي، ط٢ ١٣٦٨.

١٩. **حقائق عن التصوف:** عبد القادر عيسى ط٢ ١٩٧٠.

٢٠. **دراسات في التصوف الإسلامي:** د. محمد جلال شرف، دار النهضة ١٩٨٤.

٢١. **الرسالة القشيرية:** عبد الكريم القشيري، ١٩٥٧.

٢٢. **روح القدس في محاسبة النفس:** محيي الدين ابن عربي، مكتبة الوكيل.

٢٣. **الروحية عند محيي الدين ابن عربي:** د. علي راضي.

٢٤. **سر العالمين:** أبو حامد الغزالي، دار الشباب.

٢٥. **سير الأولياء:** صفي الدين الحسني، تحقيق مأمون ياسين وعفت حمزة ط١.

٢٦. **شخصيات قلقة في الإسلام:** د. عبد الرحمن بدوي.

٢٧. **شروح رسالة الشيخ أرسلان:** عبد الغني النابلسي، تحقيق عزة حصرية، دمشق ١٩٦٩.

٢٨. **الصلة بين التصوف والتشيع:** د. كامل مصطفى الشيبي، ط٢.

٢٩. **الصوفية في نظر الإسلام:** سميح عاطف الزين.

٣٠. **طبقات الصوفية:** عبد الرحمن السلمي، تحقيق نور الدين شريبة ط٣ ١٩٨٦.

٣١. **الطبقات الكبرى:** عبد الوهاب الشعراني، دار الفكر.

٣٢. **عوارف المعارف:** السهروردي، هامش إحياء علوم الدين.

٣٣. **الفتح الإلهي:** السهروردي، هامش إحياء علوم الدين.

٣٤. **الفتح الرباني:** عبد القادر الجيلاني تحقيق محمد سالم البواب، دار الألباب.

٣٥. **الفتوحات المكية:** محيي الدين ابن عربي، مكتبة الثقافة.

٣٦. **فصوص الحكم:** محيي الدين ابن عربي، تحقيق أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي.

٣٧. **الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي:**

٣٨. **الفيلسوف الغزالي:** د. عبد الأمير الأعسم، ط٢ ١٩٨١.

٣٩. **قلادة الجواهر:** محمد الصيادي.

٤٠. **الكبريت الأحمر:** عبد الوهاب الشعراني، هامش اليواقيت والجواهر.

٤١. **لطائف المنن:** تاج الدين السكندري، مكتبة القاهرة ١٩٧٩.

٤٢. **مجلة التراث العربي:** ص١٦٤، عـ١ ١٩٧٩.

٤٣. **مدخل إلى التصوف الإسلامي:** د. أبو الوفا التفتازاني، ط٢ ١٩٧٦.

٤٤. **ملحق إحياء علوم الدين:** مع إحياء علوم الدين للغزالي.

٤٥. **النور من كلمات أبي طيفور:** أبو يزيد البسطامي.

٤٦. **اليواقيت والجواهر:** عبد الوهاب الشعراني، مطبعة مصطفى الحلبي ١٩٥٩.

٤٧. **بد العارف:** عبد الحق ابن سبعين، تحقيق جورج كتورة، ط١ ١٩٧٨.

- الفهرس:

- المقدمة: ٣
- المريد بين الاستدراج والفرار: ٥
- سلِّم تسلم: ١٠
- الكتب ومنهج العداء في التصوف: ١٧
- الكتب الصوفية والمدسوس: ٢٦
- الشطح لتأويل الكفر: ٣٠
- الرمز لتضليل الخصوم: ٣٣
- التناقض وأولياء التصوف: ٣٥
- الصوفي كائن إلهي فلا إنكار عليه: ٤٠
- الرسول راضي على الصوفي فلا إنكار عليه: ٤٥
- المعصية ستراً للحال فلا إنكار على الصوفي: ٤٨
- أسباب الإنكار برأي الصوفي: ٥١
- الحسد علة الإنكار: ٥٣
- المنكر يعكس أحواله: ٥٥
- الجهل والغباء علة الإنكار: ٥٩
- المنكر معاقب: ٦٣
- صراع أولياء التصوف فيما بينهم: ٧٣
- صراع الأولياء على المشيخة: ٩٣
- الخاتمة: ١٠٢
- المراجع: ١٠٣
- الفهرس: ١٠٧